Add to Basket
دافنه دو موريه
ربيكا
عربي - انكليزي
Bibliotheca Alexandrina
01172789
دار البحار

ربيكا

عربي - انكليزي

تاليف

دافنه دو موربيه

دار البحار

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٩٩٥

تطلب منشوراتنا من :

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد - شارع مكحول - بناية بيرو الشامية - ملك دار ومكتبة الهلال

تلفون: [illegible] - فاكس: [illegible] - ص.ب: [illegible] - بيروت لبنان

دافنه دو مورييه
Daphne du Maurier

هي ابنة السير جيرالد دو مورييه، الذي كان ممثلاً مسرحياً انكليزياً شهيراً. إن كتابها الأول عنه، واسمه: «جيرالد، صورة قلمية Gerald, a Portrait»، لاقى نجاحاً كبيراً.

ولعل كتبها التي اشتهرت أكثر، فيما بعد، هي: «نزل جامايكا Jamaica Inn» (١٩٣٦)، «والهضبة الجائعة Hungry Hill» (١٩٤٣)، «ماري آن Mary Anne» (١٩٥٤)، و «كبش الفداء The Scapegoat» (١٩٥٧).

أما رواية «ربيكا Rebecca»، التي كتبت في سنة ١٩٣٨، فقد جُعلت فيلماً سينمائياً ممتازاً، أخرجه ألفرد هيتشكوك.

كذلك كتبت دافنه دو مورييه مسرحيتين ناجحتين ومجموعة من القصص القصيرة.

ولدت دافنه دو مورييه في لندن سنة ١٩٠٧، وتعلمت في باريس، ثم أمضت معظم حياتها إلى جانب البحر في غرب انكترا، حيث تمتعت بقيادة القوارب والتنزه في الأرياف. ولقد تزوجت عسكرياً مميزاً، هو الجنرال فريدريك براوننغ، ورُزقت صبياً وابنتين.

الفصل الأول

بداية قصة

رأيت حلماً غريباً الليلة الماضية. حلمت أنني عدت إلى مندرلي. بدا وكأنني أمر عبر البوابات الحديدية العالية. كانت الطريق مجرد ممر ضيق الآن، تكسوها الأعشاب والحشائش المهملة. ومن حين إلى آخر، وكلما ظننت أنها فُقدت، تعود لتظهر مجدداً تحت شجرة ميتة أو خلف حفرة موحلة شكلتها أمطار الشتاء. لقد أنبتت الأشجار أغصاناً جديدة امتدت عبر الطريق. وفجأة وقفت أواجه المنزل؛ وقلبي يخفق بشدة والدموع تترقرق في عينيَّ.

وهناك انتصبت مندرلي؛ فخمة، غامضة، وساكنة مثلما كانت دائماً. لم يفلح الزمن في تشويه جمال جدرانها الحجرية الرمادية التي لمعت تحت ضوء القمر في منامي. انتصب المبنى كجوهرة نادرة في راحة يد فارغة. وانتشر العشب منحدراً نحو البحر الذي كان صفحة من فضة تتهادى تحت القمر الساطع، تماماً كبحيرة هادئة لا يعكر صفوها حتى النسيم العليل. نظرت ثانية

Add to Basket

إلى المنزل لأجد الحديقة في حال من الفوضى: لقد نمت الحشائش في كل صوب وملأ الشوك المكان. وفيما وقفت هنالك هادئة ومن دون حراك، أحسست أن المنزل لم يكن صَدَفة فارغة، بل كان يضج بالحياة ويتنفس كما فعل دائماً. تسرب الضوء عبر النوافذ، وتطايرت الستائر برقة في نسيم الليل، وكان باب المكتبة نصف مفتوح مثلما تركناه، ومِنديلي على الطاولة بالقرب من إناء أزهار الخريف.

ثم اندفعت سحابة وحجبت القمر كيدٍ مظلمة أمام وجه. حدقت إلى صدفة فارغة ومن دون أي وشوشةٍ للماضي عنها. عندما كنت أفكر في مندرلي أثناء ساعات يقظتي، لم أكن لأشعر بالمرارة. كنت لأفكر فيها كما هي لو استطعت العيش هناك من دون خوف. كنت أذكر حديقة الأزهار في الصيف حيث الطيور الجميلة تغرد بلطف. كنت أذكر الشاي تحت الأشجار الظليلة وصوت البحر الحالم الصاعد إلينا من الشاطىء والأزهار المتطايرة من الشجيرات في الوادي السعيد.

هذه الذكريات لم تكن لتتلاشى أبداً طالما كانت لا تؤذي. عرفت ذلك كله في أحلامي، بينما كنت في الحقيقة مستلقيةً بعيداً في بلد غريب، وسرعان ما أستيقظ لأجد نفسي في غرفة الفندق الصغيرة الفارغة. كنت أتمدد على سريري هناك وقد أذهلتني

Add to Basket

الشمس اللاهبة والسماء الزرقاء الصافية، المختلفة تماماً عن ضوء القمر في حلمي الناعم. وكان النهار ليمتد أمامنا، طويلاً، ولكن بسكون وسلام لم نعهدهما قبلاً. لم نكن لنتحدث عن مندرلي؛ بل كنت أحتفظ بحلمي سراً، لأن مندرلي لم تعد لنا.

فالعودة إلى مندرلي مستحيلة؛ والماضي قريب جداً منا. إنما الآن أصبح كل شيء مشترك بيننا، ليس هنالك من أسرار نخفيها. إن فندقنا ممل وبارد. حتى الطعام ليس بجيد جداً. ومع ذلك؛ هذا أفضل من الخوف. أنا الآن شخص مختلف. عندما انطلقت إلى مندرلي، كنت مفعمة بالأمل والحماس، ومتلهفة لإرضاء الآخرين وإسعادهم. إلا أن عدم ثقتي بنفسي فاجأ البعض مثل السيدة دنفرز. أتساءل كيف بدوت بعد ربيكا.

أذكر كيف بدوت، بشعري القصير الأملس ووجهي الفتي الصافي، مرتديةً معطفاً وتنورة متواضعين، وأسير وراء السيدة فان هوبر إلى الفندق لتناول العشاء. كانت تذهب إلى طاولتها المعهودة في الزاوية بالقرب من النافذة وتجول بنظرها يميناً ويساراً بحثاً عن وجوه جديدة. وكانت لتردف قائلة: «ما من وجه أعرفه جيداً! ينبغي أن أخبر المدير أن عليه تخفيض فاتورتي! هل يعتقد أنني آتي إلى هنا للتطلع على النادلين؟».

Add to Basket

أكلنا بصمت؛ فالسيدة فان هوبر لم تكن تحب التفكير بشيء سوى طعامها أثناء تناول وجبتها. لاحظت فيما بعد أن الطاولة المحاذية لخاصتنا أوشكت أن تُستخدم بعد أن لبثت خالية طيلة أيام ثلاث. وضعت السيدة فان هوبر شوكتها وحدقت بلهفة. ثم انحنت فوق الطاولة نحوي وقد برقت عيناها الصغيرتان لهفة، وكان صوتها عالياً نوعاً ما حين قالت:

«إنه ماكس دي ونتر، الرجل الذي يملك منـدرلي. أنت سمعت عنها، بالتأكيد. لا يبدو على ما يرام، أليس كذلك؟ يقولون إنه لا يستطيع التغلب على ذكرى وفاة زوجته».

ما زلت أستطيع أن أتذكرها وكأنما حدث ذلك البارحة. لقد كانت حشريتها قاتلة كالوباء. فكرتُ قليلاً، ثم التفتت إلي فجأة قائلة: «إصعدي، وجدي تلك الرسالة من ابن شقيقتي، تلك المصحوبة بالصورة. اجلبيها لي فوراً».

أحسست أنها وضعت خطتها. تمنيت لو كانت عندي الجرأة كي أنذر الغريب، لكنني عندما رجعت وجدت أنها لم تملك الصبر للانتظار؛ حتى أنه كان يجلس بجانبها. أعطيتها الرسالة من دون أية كلمة. نهض باحترام على الفور.

ولكي تحذره من أكون، قالت بإهمال إنه يتناول القهوة معنا، وطلبت إلي أن آتي بفنجان آخر لنفسي. لقد أظهر ذلك أنني

Add to Basket

صغيرة وغير ذي أهمية، وأنه لا حاجة لاشراكي في الحديث. لكنني دهشت لأجد أنه لبث واقفاً وأنه هو من أشار إلى النادل قائلاً لها:

«أخشى أنني لا أوافقك الرأي، فأنتما كلاكما تتناولان القهوة معي». وهكذا وجدت نفسي جالسة بجانب مسز فان هوبر، وهو جالس في مقعدي المعتاد.

بدت منزعجة للحظة، ثم انحنت ممسكة بالرسالة وهي تقول:

«أتعلم، لقد عرفتُك حالما دخلتَ، وفكرت، ها هو السيد دي ونتر، صديق بيلي؛ لا بد أن أريه صور بيلي وزوجته. ها هما، يستحمان في بالم بيتش. إن بيلي مجنون بها. لم يكن قد التقى بها عندما أقام الحفلة حيث رأيتك أولاً لكنني أجرؤ على القول انك لا تذكر امرأة مسنة مثلي؟»

قال: «بلى، أذكرك جيداً، لا أعتقد أنني أكترث لبالم بيتش. فهذا النوع من الأشياء لا يروق لي».

ضحكت مسز فان هوبر بخشونة وقالت: «لو كان لبيلي منزل مثل مندرلي لم يكن ليفكر بمكان مثل بالم بيتش». لبث السيد دي

Add to Basket

ونتر صامتاً واستمر في التدخين، وقد بدا متزعجاً قليلاً. لكن المرأة العجوز الثرثارة تابعت تقول:

«لقد رأيت صوراً لها، وهي تبدو رائعة بشكل لا يُصدق.. أتساءل كيف يسعك تحمّل الابتعاد عنها».

كان صمته المطبق مؤلماً حتى أن أي شخص آخر كان ليلاحظ ذلك لكنها تابعت على نحو أخرق:

«طبعاً، أنتم الإنكليز مثل بعضكم البعض بالنسبة إلى بيوتكم»، قالت وصوتها يعلو أكثر فأكثر، «لا تريدون أن تظهروا فخورين بها. أليس هنالك قاعة فخمة في مندرلي تزينها عدة لوحات ثمينة جداً؟».

أحسست أنه أدرك عدم ارتياحي، لأنه انحنى في مقعده وتحدث إلي بصوته اللطيف، يسألني عما إذا كنت أرغب بمزيد من القهوة، وعندما هززت رأسي، شعرت أن عينيه ما زالتا تحدقان إلي بدهشة.

«ما الذي يأتي بك إلى هنا؟» سألت مسز فان هوبر بتطفل. «أعتقد أنك لست زائراً منتظماً. ما الذي ستقوم به؟».

قال: «لم أقرر بعد. لقد جئت بسرعة تقريباً».

بدا متزعجاً مرة ثانية؛ لا بد أن تلك الكلمات أثارت ذكرى.

Add to Basket

إلا أنها تابعت الحديث من دون أن تلاحظ ذلك.

«طبعاً ستفتقد مندرلي. لا بد أن الريف الغربي جميل في الربيع».

قال باقتضاب: «نعم. كانت مندرلي تبدو رائعة».

وفي النهاية، واتته فرصة الانسحاب عندما قدم نادل رسالة لمسز فان هوبر. إذ نهض في الحال، دافعاً بكرسيه إلى الخلف وقائلاً: «لا تدعيني أعيقك».

«كان من الممتع جداً أن ألتقي بك هكذا، يا سيد دي ونتر؛ آمل أن أراك سريعاً. لا بد أن تأتي وتتناول شراباً أحياناً. لدي شخص أو إثنان قادمان مساء غد. لِمَ لا تنضم إلينا؟» التفت بعيداً كيلا أراقبه وهو يبحث عن عذر.

«إني آسف، من المرجح أن أذهب إلى سوسبل غداً؛ لست متأكداً متى أعود».

في الصباح التالي قامت مسز فان هوبر وهي تشعر بألم في الحنجرة وحرارة مرتفعة نوعاً ما، وقد طلب منها الطبيب أن تلازم الفراش. تركتها فرحة بعد وصول ممرضة، ونزلت باكراً لتناول الغداء ـ قبل أكثر من نصف ساعة من وقتنا المعتاد. توقعت أن تكون الغرفة خالية، وقد كانت كذلك، باستثناء الطاولة المحاذية لطاولتنا. لم أكن مهيأة لذلك. إذ ظننت أنه قد غادر إلى

Add to Basket

سوسبل. كنت في منتصف الطريق عبر الغرفة، ولم يسعني العودة. لقد كان موقفاً مربكاً لم أعتد عليه. ذهبت إلى طاولتنا وأنا أتطلع أمامي مباشرة. لكن ما ان جلست حتى صدمت إناء الزهور، فسالت المياه على الغطاء ونزولاً إلى ساقيّ. كان النادل عند الطرف الآخر من الغرفة، ولم يلاحظ ما حدث. لكن في غضون ثانية، كان جاري بجانبي قائلاً باختصار:

«لا يمكنك الجلوس وغطاء الطاولة مبلل. لن تستمتعي بطعامك. ابتعدي وانضمي إليّ». ثم بدأ يجفف المياه، وبعد ذلك جاء النادل مسرعاً للمساعدة.

قال له: «جهز مائدتي لشخصين. سنتناول الآنسة الغداء معي».

قلت: «أوه، لا، لا يسعني ذلك».

«لمَ لا؟».

حاولت التفكير بعذر. كنت أعلم أنه لا يريد تناول الغداء معي. لم يكن سوى مهذب.

«تعالي واجلسي. لسنا بحاجة إلى التحدث معاً إلا إذا أردنا ذلك».

جلس وتابع تناول غدائه وكأنّ شيئاً لم يحدث. كنت أعلم أن

Add to Basket

بإمكاننا الاستمرار هكذا، من دون كلام، أثناء الوجبة كلها من دون أي إحراج. لكنه بدأ الحديث أخيراً:

«إن صديقتك هي أكبر منك سناً بكثير. هل عرفتها منذ زمن بعيد؟».

أجبته قائلة: «ليست حقاً صديقة. إنها مستخدِمة. فهي تدربني لأكون ما يدعى مرافِقة، وهي تدفع لي مقابل ذلك».

«لم أكن أعلم أن باستطاعة المرء شراء المرافقة». قال بدهشة؛ تبدو فكرة غريبة، ليست هنالك أشياء مشتركة بينكما. لماذا تقومين بذلك؟ أليست لديك أية عائلة؟».

«كلا، لقد ماتوا».

قال: «أتعلمين، نحن متشابهان في ذلك، أنتِ وأنا. نحن وحيدان في هذا العالم. أوه، لدي أخت، مع أننا لا نرى بعضنا كثيراً، وجدة متقدمة في السن أزورها مرتين أو ثلاث في السنة، لكن كلتاهما لا تمنحانني رفقة حميمة جداً. أتعلمين، أعتقد أنكِ ارتكبتِ خطأ كبيراً في القدوم إلى هنا برفقة مسز فان هوبر. فأنتِ لم تُخلقي لهذا النوع من العمل. فأنتِ شابة فتية، لأمر واحد... الآن، إصعدي وارتدي قبعتك، وسأطلب إحضار السيارة».

كنت سعيدة بعد ظهر ذلك اليوم؛ ما زلت أذكره جيداً. ما زلت أذكر السماء الزرقاء والبحر. أستطيع أن أشعر بالريح ثانية

Add to Basket

وهي تلامس وجهي وأسمع ضحكي الفرح، وضحكه الذي يجيبني به. لم تكن مونتي كارلو التي عرفتها من قبل. فالمرفأ كان يتراقص فرحاً بالقوارب، وكان البحارة سعداء يبتسمون، غير عابئين كالرياح الطليقة. أستطيع أن أتذكر، كأني ما زلت أرتديها، بذلتي المريحة والغير لائقة، قبعتي الواسعة، حذائي المثبت بشريط واحد، والقفازين بيدي التي لم تكن نظيفة جداً. لم أبدو أكثر شباباً من قبل، ولم أشعر أبداً بأنني متقدمة جداً في السن قبلاً.

أنا سعيدة لأن ذلك لن يحدث مرتين، أعني حمى الحب الأول. إنه حقاً حمى، وتعاسة أيضاً، مهما يقول عنه الشعراء والمحبون. فالمرء يُصاب ويُجرح بسهولة.

لقد نسيت الكثير عن مونتي كارلو، عن تلك النزهات الصباحية، عن الأماكن التي قصدناها، حتى عن محادثاتنا. لكنني لم أنس كيف ارتعشت أصابعي، وأنا أشد بقبعتي، وكيف كنت أهرع عبر الممر هابطة السلم ومنه إلى الخارج. وكان ينتظر هناك، في مقعد السائق، يقرأ صحيفة، وعندما كان يراني يبتسم ويلقي بها وراءه إلى المقعد الخلفي، ثم يفتح الباب قائلاً، «حسناً، كيف حال المرافقة هذا الصباح، وأين تريد هي الذهاب؟» وحتى لو قاد السيارة في حلقات لما كنت اكترثت.

Add to Basket

الفصل الثاني

يومي الأول في مندرلي

قدمنا إلى مندرلي في مطلع أيار، واصلين كما قال مكسيم، مع الطيور والأزهار قبل حلول الصيف. أستطيع أن أرى نفسي الآن، سيئة الهندام كالعادة، مع أنني كنت متزوجة منذ سبعة أسابيع. تساءلت ما إذا ظن أنني خشيت وصولي إلى مندرلي آنذاك بالقدر الذي تلهفت إلى ذلك قبلاً. لقد تلاشت لهفتي المبتهجة وكبريائي الفرح. كنت كطفلة أُحضرت إلى مدرستها الأولى، كل الثقة التي كسبتها خلال أسابيع زواجي السبعة تلاشت الآن.

قال لي: «يجب أن لا تبالي إن كان هنالك شيء من التطفل. فالكل يريد أن يعرف كيف تبدين. عليكِ أن تتصرفي بشكل طبيعي وسيحبك الجميع. وليس عليكِ القلق بشأن المنزل؛ إن مسز دنفرز تقوم بكل شيء. اتركيه لها فقط. ستكون فظة معكِ

Add to Basket

أولاً، هذا ما أجرؤ قوله. فهي شخص غير عادي، لكن لا ينبغي أن تدعيها تقلقك».

اتجهنا عبر بوابتين حديديتين عاليتين وصعوداً في الطريق الخاص، توقفنا عند درجات حجرية واسعة أمام الباب المفتوح، وجاء خادمان لملاقاتنا.

قال مكسيم للأكبر سناً وهو يخلع قفازيه: «حسناً، ها نحن هنا يا فريث». صعدنا معاً الدرجات، يتبعنا فريث والخادم الآخر بالسجادة ومعطفي.

قال مكسيم: «هذه السيدة دنفرز».

تقدمت إنسانة من بحر الوجوه، طويلة ونحيلة، ترتدي ثياباً سوداء، ذات عينين ضخمتين داكنتين في وجه أبيض. عندما أخذت يدي، كانت يدها باردة وثقيلة، وقد لبثت في يدي كشيء خالٍ من الحياة. لم تغادر عيناها عيني. لا أذكر كلماتها الآن، لكنني أعلم أنها رحبت بي في مندرلي بكلام جاف مقتضب نُطق بصوت بارد وخال من الحياة كيدها. عندما انتهت، انتظرت وكأنها تريد جواباً، فحاولت قول أي شيء، وقد سقط قفازي في غمرة ارتباكي. انحنت لالتقاطه، وفيما كانت تسلمني إياه، رأيت بسمة احتقار ضئيلة ترتسم على شفتيها.

Add to Basket

قدم فريث بعد تناول الشاي وقال: «تتساءل السيدة دنفرز عما إذا كنتِ ترغبين في رؤية غرفتك يا سيدتي».

تطلع مكسيم وقال: «كيف يسير العمل في الجناح الشرقي؟».

«حسن جداً حقاً يا سيدي. لقد خشيت السيدة دنفرز أن لا ينتهي قبل عودتك. لكن الرجال غادروا يوم الاثنين الماضي. أعتقد أنك ستكون مرتاحاً جداً هنالك يا سيدي، إنه حقاً أكثر إشراقاً من الجانب الآخر من المنزل».

سألت: «وما الذي كانوا يفعلونه؟».

«أوه، ليس بالشيء الكثير. فقط يعيدون الدهان وتأثيث الفرن في الجناح الشرقي الذي اعتقدت أننا سنستخدمه. فكما قال فريث، إنه أكثر إشراقاً في ذلك الجانب من المنزل، ويطل على حديقة الأزهار الجميلة. لقد كان جناح الزائرين عندما كانت أمي على قيد الحياة. سأنتهي فقط من قراءة تلك الرسائل ومن ثم أصعد وأنضم إليك. أسرعي وأقيمي علاقة صداقة مع السيدة دنفرز. إنها لفرصة مؤاتية».

كان شكل أسود واقف بانتظاري عند قمة السلم، وكانت العينان السوداوان في الوجه الأبيض تراقبانني. ذهبنا في ممرات واسعة، ثم جئنا إلى باب فتحته ووقفتْ جانباً لتسمح لي بالمرور. كانت هناك غرفة نوم ضخمة مزدوجة ذات نوافذ واسعة وحمام في

Add to Basket

الخلف. ذهبت إلى النوافذ في الحال. ترامت حديقة الأزهار في الأسفل وقد امتد وراءها العشب الناعم صعوداً إلى الغابات.

قلت وأنا ألتفت إلى السيدة دنفرز: «إذن لا يمكنك رؤية البحر من هنا؟».

أجابت: «كلا، ليس من هذا الجناح. حتى أنك لا يمكنك سماعه. ليس بإمكانك المعرفة إن كان البحر قريباً، من هذا الجناح».

تحدثت بطريقة غريبة وكأنما شيئاً يتوارى خلف كلماتها ـ وكأنما هنالك شيء يشوب هذا الجناح.

«آسفة بشأن ذلك؛ فأنا أحب البحر».

لم ترد؛ بل لبثت تنظر إلي، ضامةً يديها أمامها.

«ومع ذلك، إنها غرفة ساحرة جداً، وأنا متأكدة بأننا سنكون مرتاحين جداً. أفهم أنها تغيرت من أجل عودتنا».

«نعم!».

«كيف كانت قبلاً؟».

«كانت بورق أزرق وستائر مختلفة. لم يعتقد السيد ونتر أنها فرحة جداً. لم تكن تُستخدم كثيراً إلّا من قبل الزائرين من حين لآخر. لكن السيد دي ونتر أعطى أوامر خاصة في رسالته بأنك ستأخذين هذه الغرفة».

Add to Basket

«إذن لم تكن هذه غرفته في الأصل؟».

«كلا يا سيدتي؛ لم يسبق له أن استخدم الغرف في هذا الجناح من قبل».

«أوه، لم يخبرني ذلك».

ساد الصمت بيننا وتمنيت لو أنها ترحل. تساءلت لماذا ينبغي أن تستمر في الوقوف هناك تراقبني ويداها مضمومتان فوق ثوبها الأسود.

«افترض أنك موجودة في مندرلي منذ سنوات كثيرة». قلت وأنا أبذل جهداً ثانية، «أكثر من أي أحد آخر؟».

قالت: «ليس أكثر من فريث». وقد فكرت كم أن صوتها بارد وخال من الحياة كيدها عندما لبثت في يدي: «لقد كان فريث هنا عندما كان السيد الكبير على قيد الحياة، حين كان السيد دي ونتر صبياً».

«لقد فهمت؛ إذن لم تأتِ إلا بعد ذلك».

«كلا، ليس بعد ذلك. جئت إلى هنا عندما كانت السيدة دي ونتر الأولى عروساً». قالت وصوتها الذي كان مملاً وبارداً، امتلأ فجأة بحياة غير متوقعة، وكانت هنالك بقعة لون في الوجه النحيل. لقد كان التغيير مفاجئاً جداً حتى أنني انزعجت. لم أعرف ما أفعل أو أقول. بدا وكأنما نطقت بكلمات ممنوعة، كلمات أخفتها بداخلها لوقت طويل، والآن لن تبقى في الخفاء

Add to Basket

أبداً. استطعت أن أرى أنها تحتقرني، إذ وجدت أنني لست بسيدة عظيمة، بل متواضعة وخرقاء. ومع ذلك، هنالك شيء ما إلى جانب الاحتقار في عينيها، شيء ينم عن الاستياء بالتأكيد، أو حتى الكراهية؟

كان عليّ أن أقول شيئاً؛ إذ لم أستطع تركها ترى كم خشيتها ولم أثق بها. ثم سمعت نفسي أقول:

«سيدة دنفرز، آمل أن نصبح أصدقاء ويتفهم الواحد منا الآخر. عليكِ أن تتحلي بالصبر معي، أتعلمين، لأن هذا النوع من الحياة جديد بالنسبة إليّ؛ لقد عشت حياة مختلفة نوعاً ما. لكنني أريد أن أحقق نجاحاً فيها، وفوق كل شيء، أن أجعل السيد دي ونتر سعيداً. أعلم أن باستطاعتي ترك الترتيبات في المنزل لكِ، وأن عليكِ إدارة الأمور مثلما كانت تُدار دائماً، فأنا لا أريد القيام بأية تغييرات».

توقفت وقد تهدجت أنفاسي، وعندما تطلعت ثانية، وجدت أنها قد تحركت، كانت واقفة ويدها على قبضة الباب. ثم قالت:

«حسن جداً، آمل أن أقوم بكل شيء لإرضائك. إن المنزل في عهدتي منذ أكثر من سنة، ولم يتذمر السيد دي ونتر أبداً.

Add to Basket

لقد كان الأمر مختلفاً جداً طبعاً عندما كانت مسز دي ونتر السابقة على قيد الحياة؛ فعندئذٍ كان هنالك ضيوف كثر، والكثير من الحفلات، لكن مع أنني رتبت الأمور لها، فقد أحبت إصدار الأوامر بنفسها».

مرة ثانية أحسست أنها اختارت كلماتها بعناية وكانت تراقب التأثير على وجهي. إلا أنني كررت:

«أفضل ترك الأمور لكِ، أفضل ذلك». وغمر وجهها التعبير ذاته الذي لاحظته قبلاً، عندما تصافحت معها أولاً في القاعة، نظرة احتقار. تمنيت لو أنها ترحل؛ إذ كانت مثل ظل جاثم هناك.

«إن وجدتِ شيئاً لا يروق لكِ، أتخبرينني في الحال؟»

قلت: «أجل، أجل، طبعاً يا سيدة دنفرز». لكنني أدركت أنها لم تقصد ما تقول، ثم خيم الصمت علينا مرة أخرى.

«قال السيد دي ونتر إنكِ تفضلين أن تكوني في هذا الجانب. إن الغرف في الجناح الغربي قديمة جداً. إن غرفة النوم الكبيرة هي ضعف حجم هذه؛ وهي غرفة جميلة جداً أيضاً ذات سقف ملون. المقاعد فاخرة جداً، وكذلك الموقد المزخرف. إنها أجمل غرفة في المنزل. كما أن النوافذ تطلّ على البحر عبر الحديقة. لقد

Add to Basket

اعتادوا العيش في الجناح الغربي واستخدام تلك الغرف عندما كانت السيدة دي ونتر حية. تلك الغرفة الكبيرة التي كنت أخبركِ عنها، تلك المشرفة على البحر، كانت غرفة نوم السيدة دي ونتر».

بعد ذلك رأيت خيالاً يمر فوق وجهها فتراجعت نحو الحائط عندما دخل مكسيم الغرفة. قال لي:

«كيف وجدتها؟ كل شيء على ما يرام! هل تعتقدين أنكِ ستحبينها؟».

نظر حوله فرحاً كتلميذ. «لطالما اعتقدت أنها غرفة ساحرة. لقد استهلكت طيلة تلك السنوات كغرفة للضيوف. لقد أنجزتِ نجاحاً عظيماً فيها يا سيدة دنفرز، أهنئك».

قالت ووجهها خال من أي تعبير: «شكراً لك يا سيدي». ثم التفتت وخرجت من الغرفة، مغلقة الباب بهدوء وراءها.

ذهب مكسيم واتكأ على النافذة قائلاً: «أحب حديقة الزهور. أحد الأشياء الأولى التي أذكرها هي السير وراء أمي على ساقين صغيرتين جداً، بينما كانت تقطف رؤوس الأزهار الميتة. هنالك شيء مطمئن وفرح يغلف هذه الغرفة. إنها هادئة أيضاً. لن

Add to Basket

تعرفي أبداً أنك بعيدة قدر خمس دقائق عن البحر، في هذه الغرفة».

«هذا ما قالته السيد دنفرز».

ابتعد عن النافذة وتجول في الغرفة وهو ينظر إلى الصور ويفتح الخزائن. ثم سأل فجأة:

«كيف سارت الأمور بينكِ وبين دنفرز العجوز؟ إنها شخصية غير عادية في كثير من النواحي، وربما ليس من السهل التعامل معها. لكنها قادرة وستتحمل كل هموم المنزل عنكِ».

قلت بسرعة: «أتوقع أننا سنتفق كثيراً عندما تعرفني أكثر، قبل أي شيء، إنه لمن الطبيعي فقط أنها ستكرهني قليلاً أولاً».

«تكرهك؟ لماذا تكرهكِ؟ ما الذي تعنينه بحق الشيطان؟».

التفت بعيداً عن النافذة وقد اكتسى وجهه نظرة غضب. تساءلت لماذا يكترث، وتمنيت لو نطقت بشيء غير ذلك.

«أقصد أنه من الأسهل حتماً لها رعاية رجل بمفرده. أتوقع أنها اعتادت على القيام بذلك، وربما خشيت أنني سأكون صعبة المراس».

«صعبة المراس، يا إلهي...» شرع يقول: «إذا كنتِ

Add to Basket

تظنين...» بعد ذلك توقف وقبلني في أعلى رأسي وقال:

«لننسَ أمر السيدة دنفرز، أخشى أنها لا تهمني كثيراً، تعالي ودعيني أريكِ شيئاً من مندرلي».

Add to Basket

الفصل الثالث

الميناء الصغير

لم أتوقع أبداً أن تكون الحياة منظمة ومنسقة هكذا. أذكر الآن، وأنا التفتُ إلى الماضي، كيف كان مكسيم قد نهض عند الصباح الأول وارتدى ملابسه وقد كتب رسائله حتى قبل تناول الفطور، وكيف عندما نزلت السلم وجدت أنه تقريباً انتهى. تطلع إلي وابتسم قائلاً:

«لا ينبغي أن تبالي، فهذا شيء عليكِ الاعتياد عليه. إن إدارة مكان مثل مندرلي هو عمل شاق. بالمناسبة، لقد كتبت شقيقتي بياترس تطلب دعوتها إلى الغداء. كنت أشك أنها ستفعل ذلك. أعتقد أنها تريد أن تراكِ».

قلت وقد غاص قلبي: «اليوم؟».

«نعم. لن تبقى طويلاً. اعتقد أنكِ ستحبينها، فهي صادقة جداً. إن لم تروقي لها، ستخبرك بذلك مباشرة».

ولم أجد ذلك مريحاً جداً.

Add to Basket

«لدي الكثير من الأشياء لأقوم بها هذا الصباح. يجب أن أرى وكيلي فرانك كراولي، إذ إنني بعيد عن الأعمال فترة طويلة. وبالمناسبة، سيكون هنا عند الغداء أيضاً». ثم التقط رسائله وخرج من الغرفة، وأذكر أنني فكرت بأنني لم أتخيل أول صباح لي أن يكون هكذا.

خرجت مع بياترس بعد الغداء وتمشينا على مهل على العشب الأخضر الناعم.

قالت بياترس: «أعتقد أنه من المؤسف أن تعودي إلى مندرلي بهذه السرعة. لقد كان من الأفضل السفر إلى إيطاليا لثلاثة أو أربعة أشهر والعودة في منتصف الصيف. لقد كان ذلك ليفيد مكسيم أيضاً، إضافة إلى تسهيل الأمور لكِ. لا أستطيع سوى الشعور بأن الأمور ستكون عبئاً عليك هنا في البداية».

قلت: «أوه، لا أعتقد ذلك. أعرف بأنني سأتوصل إلى حب مندرلي».

لم تجب، فتمشينا ذهاباً وإياباً على العشب، ثم قالت أخيراً:

«حدثيني قليلاً عن نفسكِ. ما الذي كنتِ تفعلينه في جنوب فرنسا؟ تعيشين مع امرأة أميركية رهيبة، هذا ما قاله مكسيم».

Add to Basket

وضحت الأمور بشأن السيدة فان هوبر، وما أدت إليه، فبدت متعاطفة لكن بعيدة نوعاً ما، وكأنها تفكر بشيء آخر. ثم قالت:

«أجل، لقد حدث كل ذلك بشكل مفاجيء مثلما قلتِ. لكننا جميعاً سررنا، يا عزيزتي، وأنا آمل أن تكوني سعيدة».

تساءلت لماذا قالت إنها أملت أن نكون سعداء بدلاً من القول إنها تعرف أننا سنكون كذلك. لقد كانت طيبة ومخلصة، أحببتها جداً، لكن ظلاً من الريبة خيم على صوتها مما جعلني خائفة.

وما لبثت أن قالت: «مسكين مكسيم، لقد مر بوقت عصيب، لنأمل أنكِ قد جعلته ينساه. نحن لسنا متشابهين أبداً، أتعلمين. فأنا أبدي كل شيء على وجهي - إن كنت أحب الناس أم لا، إن كنت غاضبة أو راضية. إلا أن مكسيم مختلف تماماً. إنه هادىء جداً. ليس بإمكانك أن تعرفي ماذا يدور في ذهنه الغريب. بينما أنا أفقد صوابي بسرعة، أتشاجر كثيراً، ثم ينتهي كل شيء. مكسيم يفقد صوابه مرة أو مرتين في السنة، وعندما يفعل، يفقده فعلاً. لا أفترض أنه سيفعل ذلك معك أبداً؛ أعتقد أنكِ إنسانة هادئة ولطيفة».

نظرتْ بعيداً عني واضعة يديها في جيبيها ومتفحصة المنزل أمامنا، وهي تصفر. ثم قالت:

Add to Basket

«إذن أنت لا تستخدمين الجناح الغربي؟».

«كلا. فنحن في الجناح الشرقي. لقد تم تجهيز كل ذلك بشكل خاص».

«حقاً؟ لم أعلم ذلك. أتساءل لماذا».

«إنها فكرة مكسيم. يبدو أنه يفضل ذلك».

لم تقل شيئاً، بل تابعت تنظر إلى النوافذ وتصفر. ثم قالت فجأة: «كيف تسير الأمور بينك وبين السيدة دنفرز؟»

«لم أرها كثيراً. إنها تخيفني قليلاً. لم يسبق لي أن التقيت أحداً مثلها قبلاً».

قالت بياترس: «لا أعتقد أنكِ فعلتِ. لست بحاجة إلى الخوف منها، ولا تدعيها ترى ذلك، مهما فعلتِ. هل بدت لطيفة؟».

«كلا، ليس كثيراً».

بدأت بياترس تصفر ثانية وقالت: «لا ينبغي أن أتعامل معها بالقدر الذي تستطيعينه. إنها تغار بجنون طبعاً. كنت أخشى أن تكون كذلك».

«لماذا؟ لماذا ينبغي أن تكون غيورة؟ لا يبدو أن مكسيم مولع بها بشكل خاص».

Add to Basket

«ليس مكسيم من تفكر به، يا طفلتي العزيزة. كلا. إنها تمقت وجودك هنا ـ هذه هي المشكلة».

«لماذا؟ لِمَ ينبغي أن تكرهني؟».

«ظننت أنكِ تعلمين. اعتقدت أن مكسيم أخبرك. كانت ببساطة تحب ريبكا بشكل جنوني».

قلت: «أوه، أوه، فهمت».

وعندما كانوا يغادرون، أخذت بياترس يدي، ثم انحنت ومنحتني قبلة سريعة وقالت: «وداعاً، سامحيني إن كنت طرحت عليكِ الكثير من الأسئلة الوقحة يا عزيزتي، ونطقت بشتى الأمور التي لم يكن ينبغي أن أنطق بها. فالتهذيب ليس بميزتي القوية، مثلما سيخبرك مكسيم. وأنتِ لستِ مثلما توقعت أبداً». نظرت مباشرة إلي وهي تصفر برقة. ثم قالت وهي تنطلق نحو الباب: «أتعلمين، أنتِ مختلفة تماماً عن ريبكا».

راقبنا السيارة تتوارى خلف منحنى الطريق الخاص، ثم أخذ مكسيم ذراعي وقال: «شكراً لله على ذلك! أحضري معطفاً بسرعة واخرجي من دون أن تبالي بالمطر؛ أريد أن أتمشى. لا أتحمل الجلوس هنا».

سرعان ما وصلنا إلى مكان في الغابة حيث يوجد ممران يؤديان إلى اتجاهين مختلفين. فأخذ الكلب الممر الواقع إلى جهة اليمين

Add to Basket

في الحال. فنادى مكسيم: «ليست هذه الطريق، تعال يا جاسبر، أيها الفتى العجوز!».

تطلع الكلب إلينا، لكنه لبث دون حراك.

سألت: «لماذا يريد الذهاب من هذه الطريق؟».

قال مكسيم باقتضاب: «لنفترض أنه معتاد عليها. إنها تؤدي إلى خليج صغير حيث اعتدنا الاحتفاظ بمركب. هيا يا جاسبر!»

التفتنا إلى الممر الواقع إلى جهة اليسار.

«إن هذا يؤدي بنا إلى ما نسميه الوادي السعيد. هناك! انظري إلى ذلك».

وقفنا على منحنى هضبة تكسوها الغابات، وقد التوى الممر أمامنا إلى وادٍ، بمحاذاة ينبوع متدفق. وعلى كلا الجانبين أحنت الشجيرات المزهرة ذات الألوان الزهرية البيضاء والذهبية رؤوسها تحت مطر الشتاء، وقد عبق الجو بعبيرها. تجولنا منحدرين في الوادي، وعند نهاية الممر، شكلت الأزهار قوساً فوق رؤوسنا. انحنينا كي نمر من تحتها، وعندما انتصبت واقفة ثانية أزيل قطرات المطر عن شعري، رأيت أننا واقفان في خليج صغير، والحجارة الصلبة والبيضاء تحت أقدامنا، والأمواج تتحطم على الشاطىء، وراءنا. ابتسم مكسيم لي وهو يراقب وجهي، ثم قال:

Add to Basket

«إنها مفاجأة، أليس كذلك؟ ما من أحد يتوقع ذلك. إنه مفاجيء للغاية».

تمشينا على الشاطيء، نلعب مع الكلب ونلقي بالحجارة إلى البحر. ثم تجولنا بنظرنا فوجدنا أن جاسبر قد اختفى. نادينا وصفرنا، لكنه لم يعد. ومن ثم، من وراء الصخور الواقعة إلى يمين الخليج، سمعته.

«أسمعت ذلك؟ إنه في تلك الناحية». ثم بدأت أتسلق الصخور اللزجة حين قال مكسيم بحدة:

«إرجعي! لا نريد الذهاب في ذلك الاتجاه. على الكلب الغبي الاعتناء بنفسه. إنه يعرف طريق عودته جيداً».

تظاهرت أنني لا أسمعه ومضيت في أقصى سرعة لي أتسلق وأنزلق فوق الصخور الرطبة، ثم حين نظرت وجدت بدهشة أنني في خليج آخر، لقد بني جدار حجري فيه ليشكل مرفأ صغيراً. وحيث امتدت الغابات نزولاً إلى الشاطيء هنالك بناء طويل منخفض، نصفه بيت على شكل قارب ونصفه كوخ، مبني من الحجارة ذاتها التي بني بها جدار البحر. وكان هنالك رجل على الشاطيء، ربما كان صياداً، ينتعل حذاءً عالياً، وقد كان جاسبر يركض حوله ويقفز عليه. لكن الرجل لم يكترث؛ إذ كان منحنياً يحفر وسط الحجارة.

Add to Basket

تطلع الرجل عند سماع وقع أقدامي وقال:

«نهار سعيد. إنه متسخ، أليس كذلك؟».

كانت عيناه صغيرتين، وله فم أحمر لزج ووجه أبله فارغ. راقبني باهتمام وهو يبتسم طيلة الوقت، ثم قال: «إنني أحفر بحثاً عن الصدف. ما من صدف هنا. إنني أبحث منذ الصباح».

قلت له: «أوه، آسفة لأنك لم تجد أياً منها».

«هذا صحيح. ما من أصداف هنا».

قلت: «هيا يا جاسبر، إن الوقت متأخر. هيا أيها الفتى الكبير».

إلا أن جاسبر كان سخيفاً صاخباً وهو يركض حول لا شيء على الإطلاق، تثيره الريح والبحر. أدركت أنه لن يتبعني. التفت إلى الرجل الذي انكب ثانية على تنقيبه الغير المجدي.

«هل لديك أي حبل؟».

«إيه؟».

«هل لديك أي حبل؟».

«ما من أصداف هنا. إنني أحفر منذ الصباح». قال هذا ثم مسح عينيه الباهتتي الزرقة والدامعتين.

«أريد قطعة حبل من أجل الكلب، فهو لن يتبعني».

Add to Basket

«ايه؟» قال وابتسم ابتسامته البلهاء.

«حسناً. لا يهم».

تساءلت ما إن كان هناك أي حبل في البيت القارب، وسرت إليه. ولدهشتي، لم يكن الباب مقفلاً، فدخلت متوقعة أن أجد الشباك المعتادة والمجاذيف وكومة حبال وعلب دهان. لكنني كنت في غرفة مفروشة ذات طاولات ومقاعد وسرير دُفع إلى الحائط. كان هناك رفوف للكتب، عليها كتب وأكواب وأطباق، كما كان على الرفوف نماذج لمراكب صغيرة. لكن ما من أحد كان يعيش هناك. كان المكان رطباً وبارداً، والغبار يكسو كل مكان. لم يرق لي. فتحت الباب عند آخر الغرفة. هنا كانت الحبال التي توقعت، شراع أو إثنان، أوعية دهان، وعلى رف كانت هناك حزمة من الحبال وموسىً صدىء. إن هذا يفيد.

وعندما خرجت من الكوخ من دون أن أنظر ورائي، لم يكن الرجل يحفر؛ بل كان يراقبني ويجانبه جاسبر. انحنيت كي اربط الحبل إلى طوق الكلب.

قال الرجل وهو ينظر إلي بعينيه الصغيرتين الدامعتين: «لقد رأيتكِ تدخلين إلى هنا».

«أجل، ما من سوء في ذلك، فالسيد دي ونتر لن يبالي».

فقال: «إنها لا تدخل هنالك الآن».

«لا».

Add to Basket

«لقد رحلت في البحر، أليس كذلك؟ لن تعود أبداً؟».

«كلا، لن تعود».
«لم أقل شيئاً، هل فعلت؟».
«لا، طبعاً لا؛ لا تقلق».

انكب ثانية على تنقيبه وهو يحدث نفسه بهدوء. ذهبت إلى مكسيم الذي كان ينتظرني بجانب الصخور، واضعاً يديه في جيبيه. قلت:
«آسفة، لم يكن جاسبر ليأتي. كان عليّ إحضار قطعة حبل».

التفت بحدة وانطلق باتجاه الغابات.

«آسفة لتأخيري إلى هذا الوقت. إنه خطأ جاسبر. لقد استمر في الجري نحو الرجل. من هو؟».

«إنه بن. إنه شيطان مسكين غير مؤذٍ. لقد كان والده واحداً من خدم المزرعة. من أين حصلتِ على ذاك الحبل؟».

«عثرت عليه في الكوخ».

لم يجب مكسيم، بل مشى مسرعاً جداً وكان الممر منحدراً.

«هيا يا جاسبر، إكراماً للسماء! اجعليه يمشي بسرعة، ألا يمكنكِ؟ شدي ذاك الحبل».

Add to Basket

«إن هذا خطأك. أنت تمشي بسرعة كبيرة ولا يسعنا اللحاق بك».

«لو أنكِ أصغيتِ إلي بدلاً من الاندفاع فوق تلك الصخور لكنا الآن في المنزل. إن جاسبر يعرف طريق عودته. لا أستطيع أن أفكر لماذا أردتِ اللحاق به».

«ظننت أنه ربما وقع وجرح نفسه. كما كنت أخشى المد».

«هل يُحتمل أن أترك الكلب لو أن هنالك أي خطر من المد؟. أخبرتك ألاّ تذهبي إلى تلك الصخور، والآن تتذمرين لأنك متعبة».

«كل إنسان يتعب إذا ما مشى بهذه السرعة. على أي حال، ظننتك ستأتي معي عندما مضيت في أثر جاسبر بدلاً من البقاء في الخلف.

«لماذا أرهق نفسي في الجري وراء الكلب التعيس؟».

«أنت تقول ذلك فقط لأنك لا تملك أي عذر آخر».

«عذراً لماذا؟».
«عذراً لعدم مجيئك معي إلى فوق الصخور».

«حسناً، ولماذا تعتقدين أنني لم أشأ العبور إلى الخليج الآخر؟».

Add to Basket

«أوه، مكسيم ـ كيف لي أن أعرف؟ فأنا لا أقرأ الأفكار. أعرف أنك لم تشأ ذلك، هذا كل ما في الأمر. أستطيع رؤية ذلك في وجهك».

«رؤية ماذا في وجهي؟».

«لقد سبق وأخبرتك. أستطيع أن أرى أنك لم تشأ الذهاب».

«حسناً، لم أشأ الذهاب إلى الخليج الآخر. هل هذا يرضيكِ؟ لا أذهب قرب المكان أبداً أو إلى ذاك الكوخ التعيس. ولو كانت لديكِ ذاكرتي لما ذهبت إلى هناك، أيضاً، أو تحدثت عنه، أو حتى فكرتِ به. آمل أن يقنعك هذا».

شحب وجهه وشخصت عيناه بتلك النظرة الحالكة التائهة التي تميز بها عندما التقيته أول مرة. وضعت يدي بيده وأمسكت بها بشدة وقلت:

«أرجوك مكسيم، أرجوك!».

أجاب بخشونة: «ما الأمر؟».

«لا أريدك أن تبدو هكذا. إن هذا يؤلمني كثيراً. أرجوك يا مكسيم. لننسَ ما قلناه. إنها لمشادة حمقاء وبلا معنى. آسفة يا عزيزي. آسفة. أرجوك أترك الأمور تجري على ما يرام».

لكنه قال: «كان ينبغي أن نبقى في ايطاليا. لم يكن ينبغي أن نعود إلى مندرلي. يا إلهي، كم كنت أحمق بعودتي!».

Add to Basket

الفصل الرابع

حديث مع فرانك كراولي

فيما بعد ذلك بيوم قابلت الوكيل فرانك كراولي على الطريق الخاص. خلع قبعته وابتسم، وبدا سعيداً برؤيتي. ابتسمت له. لقد كان لطيفاً منه أن يسعد برؤيتي. أحببت فرانك كراولي، إذ لم أجده مملاً مثل بياترس. ربما لأنني أنا نفسي مملة. سرنا طوال الطريق معاً، ثم قلت:

«لقد نزلت إلى أحد الخلجان في اليوم التالي، ذاك الذي يشمل المرفأ الصغير. وكان جاسبر سخيفاً يركض حول ذلك الرجل المسكين الذي يبدو غبياً».

«لا بد أنك تعنين بنّ. فهو دائماً يتجول على الشاطىء. إنه إنسان لطيف للغاية؛ لا يجب أن تخشيه».

قلت: «أوه، لم أكن خائفة». تريثت لحظة لأستجمع ثقتي، ثم قلت ببساطة: «أخشى أن يخرب ذاك الكوخ. كان علي الدخول للعثور على قطعة حبل كي أربط جاسبر. إنه رطب جداً

Add to Basket

والكتب بدأت تهترىء. لماذا لا يفعل شيئاً بشأنه؟ إنه بحالة سيئة للغاية».

أدركت أنه لن يجيب في الحال. انحنى ليربط حذاءه ثم قال: «أعتقد أنه لو أراد مكسيم أن يفعل أي شيء بشأنه لأخبرني بذلك».

«هل هي أغراض ربيكا؟».

«نعم».

«لماذا كانت تستخدم الكوخ؟ يبدو أنه مفروش جيداً. لقد ظننته من الخارج بيت مركب».

«لقد كان في الأصل بيت مركب». قال وقد بدا غير مرتاح. «ثم ـ ثم غيّرته... ووضعت فيه أثاثاً وكتباً».

«وهل استخدمته كثيراً؟».

«أجل، لقد فعلت. من أجل الاستحمام في ضوء القمر و ـ ولشيء آخر وآخر».

«كم هذا مثير! لا بد أن الاستحمام في ضوء القمر ممتع. هل سبق لك أن مضيت إلى ذلك؟».

«مرة أو مرتين». تظاهرت أنني لم ألاحظ كيف أصبح هادئاً، وكيف أنه غير راغب في التحدث عن تلك الأمور.

«ولمَ يُستخدم المرفأ الصغير؟».

«لقد اعتادوا ابقاء المركب هناك».

Add to Basket

«أي مركب؟»

«مركبها».

انتابني نوع غريب من الدهشة. كان علي الاستمرار في طرح أسئلتي. إلا أنه لم يرغب في التحدث عنه. كنت أعرف ذلك. لكنني لم أستطع أن ألتزم الصمت.

«ما الذي حدث له؟ هل هو ذاك المركب الذي كانت تبحر فيه عندما غرقت؟».

«أجل، لقد انقلب وغرق، فيما هي جُرفت».

«كيف كان حجمه؟».

«صغيراً جداً. كان يحتوي على مكان صغير يمكن للمرء النوم فيه».

«وما الذي قلبه؟».

«يمكن للطقس أن يكون شديد الرياح في الخليج».

«ألم يتمكن أحد من الوصول إليها؟».

«لم ير أحد الحادث؛ لم يعرف أحد أنها ذهبت».

«لا بد أنهم عرفوا في المنزل فوق!».

«كلا، فهي غالباً ما ذهبت بمفردها هكذا. وكانت لتعود في أي وقت من الليل، وتنام في الكوخ على الشاطئ».

«وهل - هل كان مكسيم يسمح بذهابها وحيدة هكذا؟».

تريث لحظة ومن ثم قال باقتضاب: «لست أدري». أحسست

Add to Basket

أنه كان وفياً لشخص ما. إما لكسيم أو لربيكا، أو ربما حتى لنفسه. كان غريب الأطوار. لم أعرف ماذا أستنتج من ذلك.

«لا بد أنها غرقت، إذن، وهي تحاول السباحة إلى الشاطىء بعدما غرق المركب؟».

«نعم».

فكرت كيف يهتز المركب الصغير، وكيف أن الأشرعة تضغط عليه فجأة وتندفع المياه إلى الداخل. لا بد أن الشاطىء بدا بعيداً جداً بالنسبة لأي كان يسبح هنالك في الماء.

«ومتى تم العثور عليها بعد ذلك؟».

«بعد حوالي شهرين».

شهرين؟ اعتقدت أنه يتم العثور على الغرقى بعد حوالي يومين. اعتقدت أن المد يجرفهم عندما يأتي.

«أين عثروا عليها؟».

«بالقرب من إدجكومب ـ على بعد أربعين ميلاً من الساحل».

«كيف عرفوا أنها هي ـ بعد شهرين، كيف استطاعوا التعرف إليها؟» تساءلت لماذا توقف قبل كل جملة، وكأنما يفكر ملياً

Add to Basket

بكلماته. هل كان يهتم بها حينذاك؟ هل كانت تهمه إلى هذا الحد؟

«لقد ذهب مكسيم إلى إدجكومب لرؤية الجثة، وقد تعرف إليها».

فجأة لم أشأ أن أطرح عليه المزيد من الأسئلة. شعرت بدوار. كرهت نفسي. وساد بيننا حرج لا يمكن تجاهله.

ثم قلت بيأس: «فرانك، أعرف بماذا تفكر. لا يمكنك أن تفهم لماذا طرحت كل تلك الأسئلة الآن فقط. تعتقد أنني متطفلة وبشكل مزعج جداً. ليس الأمر كذلك. إنه فقط ـ أحياناً أشعر بنفسي أنني في وضع سيء. كل شيء غريب بالنسبة إلي؛ الحياة هنا في مندرلي. إنها ليست بنوع الحياة التي اعتدت عليها. أعرف أن الناس يتطلعون إلي صعوداً ونزولاً، متسائلين ما أنا فاعلة به. أستطيع أن أتخيلهم وهم يقولون: «ماذا وجد مكسيم فيها بحق الأرض؟» ومن ثم أبدأ أتساءل يا فرانك، ولدي شعور مريب لم يكن ينبغي أن أتزوج مكسيم. وإننا لن نكون سعيدين. أعرف أنهم كلهم يفكرون «كم هي تختلف عن ريبيكا!».

توقفت، متهدجة الأنفاس وأنا أشعر بالخجل من نفسي.

Add to Basket

إلتفت فرانك إلي وهو يبدو مضطرباً جداً، ثم قال: «أرجوكِ يا سيدة دي ونتر لا تفكري هكذا. لا يسعني أن أخبرك كم سررت لأنكِ تزوجتِ مكسيم. فهذا سيغير حياته. أعلم بأنكِ ستحرزين نجاحاً عظيماً في ذلك. وإن كان الناس في الجوار يجعلونكِ تشعرين بأنهم يبحثون عن خطأ فيكِ، فهذه ـ حسناً ـ هذه وقاحة ملعونة منهم. ومع ذلك لم أسمع كلمة عن ذلك».

«شكراً لك يا فرانك، إن ما تقوله يساعد كثيراً. أجرؤ على القول بأنني كنت حمقاء جداً. فأنا لست جيدة عند لقاء أناس جدد. إذ لم يكن علي ذلك أبداً. وطيلة الوقت أفكر كيف ـ كيف كانت ستدرلي من قبل، وعندما كان هنا شخص ما وقد وُلد لها، وتصرف فيها بشكل طبيعي تماماً ومن دون تكلف. وفي كل يوم أدرك أنها كانت تمتلك الأشياء التي أفتقر ـ الثقة، الرشاقة، الجمال، والتفكير ـ كل الصفات التي تعني الشيء الكثير في المرأة. إن هذا لا يساعد يا فرانك».

لم يقل شيئاً، بل ظل يبدو قلقاً. سحب منديله ومسح أنفه، ثم قال: «لا ينبغي أن تقولي ذلك».

«لم لا؟ إنها الحقيقة».

«إن لديكِ مزايا هي بذات الأهمية. وفي الواقع أهم من ذلك بكثير. لا أعرفك جيداً. لست متزوجاً ولا أعرف الكثير عن

Add to Basket

النساء، لكنني أقول إن الطيبة والصدق و- إذا أمكنني القول- التواضع، هي أهم بكثير بالنسبة إلى الزوج من كل العقول والجمال في العالم».

ظل يبدو قلقاً، ثم مسح أنفه ثانية وقال: «أنا متأكد من أن مكسيم سينزعج جداً لو علم كيف شعرتِ. لا أعتقد أن لديه أية فكرة عن ذلك. أنت صغيرة يافعة و-حساسة؛ وليست لديكِ أية صلة بالوقت الذي مضى. إنسي ذلك يا سيدة دي ونتر مثلما نسي هو، بفضل السماء وفضلنا. ما من أحد منا يريد العودة إلى الماضي. وأقل واحد منا هو مكسيم. والأمر يعود إليكِ، أتعلمين، في قيادتنا بعيداً عنه. لا أن تعيدينا إلى هنالك مجدداً».

لقد كان محقاً طبعاً، العزيز فرانك الطيب. «كان ينبغي أن أخبرك بذلك من قبل. أشعر أكثر سعادة- أكثر سعادة بكثير. وأنا أتخذك صديقاً، مهما حدث، أليس كذلك يا فرانك؟».

«نعم، حقاً».

«فرانك، قبل أن نضع حداً لهذا الحديث، للأبد، هل لك أن تجيب عن سؤال واحد فقط؟».

«حسن جداً. سأبذل قصارى جهدي».

Add to Basket

قلت باستخفاف وكأنما غير مبالية البتة: «أخبرني، أخبرني، هل كانت ريبكا جميلة جداً؟».

تريث فرانك لحظة، لم أستطع رؤية وجهه؛ كان ينظر بعيداً عني في اتجاه المنزل. ثم قال: «نعم، نعم ـ أعتقد أنها أجمل مخلوق رأيته في حياتي».

صعدت السلم، ثم إلى المكتبة، وقرعت الجرس طلباً للشاي.

Add to Basket

الفصل الخامس

في غرفة ربيكا

كان على مكسيم الذهاب إلى لندن عند نهاية حزيران من أجل دعوة عشاء عامة. بقي غائباً مدة يومين، وتُركت أنا بمفردي. بعد الغداء، ناديت جاسبر وانطلقنا نحو الشاطىء. ساقني جاسبر عبر الطريق وذهب مباشرة إلى الخليج حيث يوجد المرفأ. لم يكن باب الكوخ مغلقاً تماماً. ثم سمعت جلبة في مخزن المركب.

«هل هناك أحد؟» ما من جواب. تطلعت حول طرف الباب. كان شخص ما يحاول الاختباء وراء الأشرعة. إنه بن.

«ما الأمر؟ هل تريد شيئاً؟».

تطلع إلي ببلاهة وقد فتح فمه. ثم قال:
«إنني لا أفعل شيئاً».

قلت له: «أعتقد أن من الأفضل لك أن تخرج. فالسيد دي

Add to Basket

ونتر لا يحب أن يدخل ويخرج الناس من هنا».

نهض وإحدى يديه وراء ظهره. فسألته:

«ماذا بحوزتك يا بن؟» أطاع كطفل، وأراني اليد الأخرى. كان فيها خيط للصيد. ثم قال ثانية: «إنني لا أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً. لا أريد أن يضعوني في السجن». ثم تدحرجت دمعة على خده الوسخ. «مع ذلك، أنتِ لستِ كالأخرى».

«ما الذي تعنيه؟ أية واحدة أخرى؟».

كانت طويلة وسمراء. كانت تمنحك الشعور بأنها شخص غادر. لقد رأيتها بأم عيني. كانت تأتي في الليل. لقد رأيتها». توقف وأخذ يراقبني عن كثب. «تطلعت إليها ذات مرة، فالتفتت إلي، لقد فعلت. وقالت لي: «أنت لا تعرفني، أليس كذلك؟ لم ترني هنا أبداً، ولن تفعل ثانية. لو قبضت عليك وأنت تنظر خلال النوافذ هنا سأدعهم يضعونك في السجن. أنت لا ترغب في ذلك، أليس كذلك؟ إنهم شرسون مع السجناء». قلت لها: لن أقول شيئاً يا سيدتي، ثم لمست قبعتي هكذا. لقد رحلت الآن، ألم ترحل؟» أضاف بلهفة.

قلت ببطء: «لا أعرف ماذا تقصد. ما من أحد سيضعك في السجن. عمت مساءً يا بن».

Add to Basket

التفت ومشيت في الممر. يا للمسكين ـ لقد كان مجنوناً طبعاً. لم يكن يدري ماذا يقول. إذ قلما يمكن للمرء أن يهدده بالسجن. لقد قال مكسيم إنه غير مؤذٍ، وكذلك قال فرانك. فجأة رغبت في الجري. لقد كنت غبية كي آتي إلى هذا الخليج، كان ينبغي أن أذهب إلى الخليج الآخر المحاذي للوادي السعيد.

عندما رجعت إلى المنزل لم يكن أحد في الجوار، وكان الوقت مبكراً جداً لتناول الشاي. لكن لم يمضِ على وجودي في غرفة الرسم وقت طويل حتى سمعت وقع أقدام، ثم دخل رجل الغرفة. لم يرني في البداية، لكنه حين فعل، تطلع إلي بدهشة. بدا وكأنني لص وهو سيد المنزل. كان رجلاً ضخم الجثة قوي البنية وحسن الملامح نوعاً ما. كانت لديه عينا سكير زرقاوان متقدتان. وكان ليصبح سميناً في السنوات القليلة القادمة. كان فمه ناعماً وزهري اللون، وتعبق منه رائحة الشرب. بدأ يبتسم. إنها نوع الابتسامة التي يمنحها لكل امرأة، قال:

«آمل أن لا أكون قد أخفتكِ».

«لا ـ بالطبع لا. أنا ـ أنا لم أتوقع أي زائرين بعد الظهر».

«يا للعار ـ من السيء جداً لي الدخول هكذا. الحقيقة هي أنني قدمت لرؤية السيدة دنفرز. إنها صديقة قديمة لي».

Add to Basket

«أو، طبعاً ـ إن كل شيء على ما يرام».
«كيف ماكس العجوز؟».

تعجبت لهذا السؤال. بدا وكأنه يعرفه جيداً. لكن كان من الغريب سماع التحدث عن مكسيم كماكس. إذ لم يناده أحد بذلك.

«إنه جيد جداً، شكراً لك. لقد ذهب إلى لندن».

«وتركك بمفردك؟ هذا سيء للغاية. ألا يخشى أن يأتي أحد ويخطفك؟».

ضحك، ولم تعجبني ضحكته. كما أنني لم أحبه أيضاً. بعدئذٍ دخلت السيدة دنفرز الغرفة. التفتت بعينيها نحوي، فشعرت بالبرودة. كم كانت لتكرهني!

«مرحباً داني. ها أنتِ هنا! حسناً، ألا تنوين تقديمي؟».

تكلمت بهدوء ورغماً عنها تقريباً: «هذا هو السيد فافيل، يا سيدتي».
قلت: «كيف حالك؟».

«اخرجي وألقي نظرة على سيارتي. أفترض أن من الأفضل لي أن أرحل، أليس كذلك؟» استمر في التحدث بطريقة ودية وغير

Add to Basket

سارة. لم أرغب في الذهاب والنظر إلى سيارته، شعرت بالارتباك، لكنني لم أستطع التفكير بأي عذر.

«أين هي؟».

«عند الزاوية؛ لم أقدها إلى الباب - خشيت إزعاجك، اعتقدت أنك ربما استرحتِ بعد الظهر».

لم أقل شيئاً. كانت الكذبة واضحة. سرنا خارج المنزل إلى سيارته، إنها سيارة سباق خضراء مثلما تتوقع من صاحبها.

«تعالي في نزهة إلى البوابات؟».

«لا، لا أظن أنني سأفعل. فأنا متعبة جداً».

قال ضاحكاً: «لا تعتقدين أن الأمر يبدو مناسباً جداً لسيدة مندرلي أن تشاهد راكبة مع واحد مثلي، أليس كذلك؟».

قلت وقد احمرت وجنتاي: «أوه، لا، لا حقاً».

«أوه، حسن - وداعاً. بالمناسبة، سيكون حسن تصرف جيد من قبلك لو لم تقولي شيئاً لماكس عن زيارتي الصغيرة، أخشى أنه لا يستسيغني، وربما أوقع داني العجوز المسكينة في مشكلة».

قلت بارتباك: «لا، حسناً».

«هذا رياضي جداً منكِ. بالتأكيد لن تغيري رأيكِ وتأتي في

Add to Basket

نزهة؟ لا، إذن وداعاً»، أدار المحرك وزعقت السيارة في الممر.

مشيت ببطء عائدة إلى المنزل. كان مكسيم بعيداً، ويفترض أنه في نزهة طويلة في الخارج. كانت عطلة فريث، والخادمات عادة في الطابق العلوي يبدلن ملابسهن خلال بعد الظهر. وهكذا اختار فافيل وقته جيداً للقيام بزيارة للسيدة دنفرز. حسن جداً، من هو؟ وفيما وقفت في البهو خطرت لي فكرة فجأة، ربما لم تكن السيدة دنفرز مخلصة، وأنها تقوم بشيء من وراء ظهر مكسيم. لنفترض أن هذا الرجل، فافيل، كان لصاً والسيدة دنفرز تدفع له؟ فهناك أشياء ثمينة في الجناح الغربي. فقررت فجأة أن أذهب بهدوء إلى الطابق العلوي. وأتأكد بنفسي. كان قلبي يخفق بطريقة غريبة مثارة.

لم يكن هناك أي صوت على الاطلاق في الطابق العلوي. كنت غير متأكدة أي طريق أسلك، فتخطيط الغرف لم يكن مألوفاً لدي، لكنني أدرت قبضة باب ودخلت. كان الظلام مخيماً لأن الستائر مسحوبة. أشعلت الضوء، وبصدمة من الدهشة وجدت أن الغرفة تحفل بالأثاث وكأنما يتم استخدامها ـ إذ توقعت أن أرى مقاعد وطاولات مغطاة بأغطية يملأها الغبار، لكن ما من شيء كان مغطى. كانت هنالك فراش على المزينة، وعطر ومسحوق. وكان السرير مرتباً. وهنالك أزهار وحذاء وُضع أمام كرسي. وفي غمرة لحظة غير عادية فكرت أن شيئاً ما حدث

Add to Basket

لعقلي، إنني أتطلع إلى وقت قد ولّى، وأنظر إلى الغرفة مثلما اعتادت أن تكون قبل أن تموت... وبلحظة ستعود ربيكا نفسها إلى الغرفة وتجلس إلى مزينتها، تصل إلى مشطها وتبدأ تسرح به شعرها... لكن لم يحدث شيء. لبثت واقفة هناك أنتظر أمراً ليحدث. وكان صوت الساعة الذي أعادني إلى الواقع ثانية. وقفت العقارب عند الرابعة والخمس والعشرين دقيقة. وأشارت ساعتي إلى الوقت ذاته. ذكرتني أن الشاي سرعان ما يصبح جاهزاً تحت الأشجار. كلا - إن هذه الغرفة لا تستخدم. لا أحد يقطنها الآن. حتى ولو وضعت السيدة دنفرز الأزهار على الطاولات والأغطية على السرير؛ فهذه لن تعيد ربيكا. إنها ميتة. لقد مضى على موتها سنة الآن. إنها مستلقية مدفونة مع سائر موتى آل دي ونتر الآخرين.

أجل، إنها لغرفة جميلة. لقد نطقت السيدة دنفرز صدقاً تلك الأمسية الأولى. إنها أجمل غرفة في المنزل. لمست الأغطية؛ هناك رداء نوم على السرير، إنه بارد الآن، لكنه ما زال يحمل رائحة خفيفة. نظرت حولي بشعور متزايد من الاشمئزاز، الاشمئزاز المتحول إلى يأس.

ثم سمعت وقع خطوات خلفي، وعندما التفتُّ رأيت السيدة

Add to Basket

دنفرز. لن أنسى أبداً النظرة التي كست وجهها ـ كانت نظرة شريرة، مثارة بطريقة غريبة حاقدة. شعرت بخوف شديد.

قالت: «هل هناك أي خطب، سيدتي؟».

حاولت أن أبتسم لكنني لم أستطع. حاولت أن أتكلم. ثم سألت وهي تتقدم مني وتتحدث بنعومة فائقة: «هل تشعرين بسوء؟» أحسست بنفسها يلامس وجهي.

قلت بعد لحظة: «إنني على ما يرام يا سيدة دنفرز. لم أتوقع أن أراكِ».

«هل رغبت في مشاهدة الغرفة؟ لماذا لم تطلبي مني أن أريك إياها من قبل؟ لا عليكِ سوى الطلب مني».

رغبت في الهروب، لكنني لم أستطع الحراك. بقيت أراقب عينيها.

«بما أنكِ أنت هنا الآن، دعيني أريكِ كل شيء»، قالت وقد بدا صوتها طيباً ومخادعاً بشكل رهيب. «أعرف أنكِ تودين رؤية ذلك كله ـ وددتِ ذلك منذ وقت طويل، لكنك لم تشائي طلب ذلك. إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟ أجمل غرفة سبق أن رأيتها. هذا هو سريرها، هذا هو ثوب نومها. لقد كنتِ تلمسينه، أليس كذلك؟ تحسسي ـ كم هو ناعم وخفيف! هذا هو

Add to Basket

ثوب النوم الذي كانت ترتديه الليلة التي سبقت وفاتها. لقد كانت ترتدي بنطالاً طبعاً وقميصاً عندما غرقت. مع ذلك مُزقوا عن جسدها في الماء. لم يكن هنالك شيء على الجسد عندما عُثر عليها، بعد كل تلك الأسابيع». شدت أصابعها على ذراعي؛ وكان وجهها قريباً. وعيناها الداكنتان تتفحصان عيني. «أتعلمين، لقد حطمتها الصخور إلى قطع؛ لم يتم التعرف على وجهها الجميل، ولا ذراعيها.. ذهب السيد دي ونتر إلى إدجكومب. ذهب بمفرده تماماً. لقد كان مريضاً جداً آنذاك، لكنه أراد الذهاب ولم يكن أحد ليردعه ـ ولا حتى السيد كراولي». توقفت، إلا أن عينيها لم تكن لتترك وجهي. ثم قالت: «سألوم نفسي دائماً بسبب الحادث. إنه خطأي لأنني لم أكن موجودة في ذلك المساء. لقد ذهبتُ إلى كريث لقضاء بعد الظهر ولبثت هنالك حتى وقت متأخر، إذ كانت السيدة دي ونتر في لندن ولم يُتوقع أن تعود حتى وقت متأخر جداً. لهذا لم أسرع في العودة. عندما دخلت، في حوالي التاسعة والنصف، علمت أنها عادت، ثم تناولت العشاء، ثم خرجت ثانية، إلى المركب، طبعاً. شعرت بالقلق آنذاك. كانت الرياح تهب من الجنوب ـ الشرقي. لم تكن أبداً لتذهب لو كنت في المنزل. كانت دائماً تصغي إليّ». أمسكت أصابعها بي بشدة مسببة الألم لذراعي. ثم تابعت: «كان السيد دي ونتر يتناول العشاء مع السيد كراولي في

Add to Basket

منزله. لا أدري متى عاد. أجرؤ على القول إنه كان بعد الحادية عشرة. لكن العاصفة بدأت تهب بقوة قبل منتصف الليل، وهي لم تعد. ذهبت وقرعت باب غرفة النوم. أجاب السيد دي ونتر في الحال: «من؟ ماذا تريدين؟» بلحظة فتح الباب بملابسه الليلية. قال: «أتوقع أنها تمضي الليل تحت في الكوخ، لو كنت مكانك لآويت إلى فراشي. إنها لن تعود إلى هنا لتنام لو استمرت العاصفة هكذا». بدا متعباً ولم أشأ أن أزعجه ثانية. قبل أي شيء، كانت تمضي ليالي كثيرة في الكوخ، واعتادت على الإبحار في أي طقس. ربما لم تذهب حتى للإبحار، بل أرادت فقط قضاء ليلة في الكوخ كنوع من التغيير بعد لندن. قلت ليلة سعيدة للسيد دي ونتر وعدت إلى غرفتي. ومع ذلك لم أستطع النوم، بقيت أتساءل ماذا كانت تفعل».

توقفت ثانية. لم أرغب في سماع المزيد. أردت الابتعاد عنها، بعيداً عن الغرفة.

«تدركين الآن لماذا لا يستخدم السيد دي ونتر تلك الغرف. أصغي إلى البحر! لم يعد يستخدم تلك الغرف منذ الليلة التي غرقت فيها. أحياناً عندما يكون السيد دي ونتر بعيداً وتشعرين بالوحدة، ربما أحببت الصعود إلى تلك الغرف والجلوس هنا. عليكِ فقط أن تخبريني». كانت ابتسامتها مزيفة وغير طبيعية.

Add to Basket

«إنها لغرف جميلة. لن تفكري أنها رحلت منذ زمن، هل تفكرين، طبقاً للطريقة التي أبقيت عليها الغرف؟ تظنين فقط أنها خرجت منذ برهة قصيرة وستعود في المساء. وليس ذلك في هذه الغرفة فحسب- بل في كثير من الغرف في المنزل. في الغرفة الصباحية، البهو، وغرفة الأزهار الصغيرة. أشعر بها في كل مكان. أنتِ أيضاً تفعلين، أليس كذلك؟» توقفت تراقب عيني. «هل تعتقدين أنها تستطيع رؤيتنا نتحدث إلى بعضنا الآن؟ هل تعتقدين أن الموتى يعودون ويراقبون الأحياء؟».

ابتلعت ريقي وبدا صوتي مرتفعاً وغير طبيعي. إنه ليس صوتي أبداً: «لست أدري».

همست قائلة: «أتساءل أحياناً، أتساءل أحياناً عما إذا ستعود إلى مندرلي وتشاهدك أنت والسيد دي ونتر معاً».

وقفنا هنالك نراقب بعضنا. لم أستطع إبعاد عيني عن عينيها، كم كانتا داكنتين، وكم كانتا مليئتين بالكراهية! بعد ذلك فتحت الباب وتنحت جانباً لي كي أخرج. «الشاي جاهز الآن، لديهم الأوامر ليأخذوه خارجاً تحت الأشجار».

في اليوم التالي، في سيارة بياترس، تساءلتُ عما أخبرها عن السيدة دنفرز وعن الرجل فافيل.

Add to Basket

«بياترس ـ هل سبق لك أن سمعت عن شخص يدعى فافيل؟ جاك فافيل؟».

رددت قائلة: «جاك فافيل ـ نعم، أعرف الاسم. انتظري لحظة. جاك فافيل؟ أجل، طبعاً. إنه رجل رهيب! قابلته مرة، منذ سنوات».

قلت: «لقد جاء إلى مندرلي البارحة لرؤية السيد دنفرز».

«حقاً؟ أوه، حسناً ـ ربما كان...».

«لماذا؟».

«أعتقد على الأرجح انه كان ابن عم ريبكا».

انتابتني دهشة كبيرة. ذلك الرجل قريبها؟ لم تكن فكرتي انه نوع ابن العم الذي يكون لدى ريبكا، جاك فافيل ابن عمها؟ قلت: «أوه، لم أدرك ذلك».

«من المحتمل أنه اعتاد الذهاب إلى مندرلي كثيراً. لست أدري. لا يمكنني أن أخبرك، فأنا نادراً ما كنت هناك».

أحسست أنها لا ترغب في التحدث عنه. فقلت:

«لم يعجبني كثيراً».

قالت بياترس، «لا، لا ألومك».

انتظرت، لكنها لم تقل المزيد.

عندما عدت إلى مندرلي، كانت قبعة مكسيم وقفازاه ملقيين

Add to Basket

على الطاولة. ذهبت نحو المكتبة، لكن حين اقتربت سمعت أصواتاً، أحدهم مرتفع أكثر من الآخر ـ صوت مكسيم، كان الباب مغلقاً، فتوقفت.

«يمكنكِ أن تكتبي وتخبريه عني أن يبقى بعيداً عن مندرلي في المستقبل، هل تسمعين؟ لا يهم من قال لي؛ صدف أن علمت أن سيارته شوهدت هنا بعد ظهر البارحة. إن أردتِ مقابلته، تستطيعين مقابلته خارج مندرلي. لن أستقبله داخل البوابات، هل تفهمين؟ تذكري ـ إني أحذرك ـ للمرة الأخيرة!».

ابتعدت بسرعة. خرجت السيدة دنفرز من المكتبة، لم ترني، لكنني رأيت وجهها لبرهة، كان شاحباً من الغضب، مقطباً، ورهيباً.

تريثت للحظة، ثم دخلت. كان مكسيم واقفاً بجانب النافذة، يمسك ببعض الرسائل بيده ومديراً ظهره لي.

قال: «من الآن؟».

ابتسمت وأنا أمد يدي وأقول: «مرحباً!».

«أوه، أنت...».

استطعت أن أتبين أن شيئاً ما جعله في غاية الغضب. كان فمه قاسياً ووجهه شاحباً، جلسنا معاً بجانب النافذة.

Add to Basket

«هل الطقس حار في لندن؟».

«أجل، سيء للغاية. لطالما كرهت المكان».

تساءلت عما إذا كان سيخبرني عما حدث آنذاك مع السيدة دنفرز. تساءلت من أخبره عن فافيل.

«هل أنتَ قلق بشأن أمر ما؟».

«لقد أمضيت نهاراً طويلاً. تلك الرحلة مرتان في غضون أربع وعشرين ساعة هي مرهقة لأي إنسان». نهض وتجول بعيداً، وهو يشعل غليونه، أدركت حينذاك أنه لن يخبرني عن السيدة دنفرز.

Add to Basket

الفصل السادس

مفاجأة مريعة

أذكر أنه كان يوم أحد، عندما جاءنا زائرون، وأثير موضوع ثوب الرقص الخيالي لأول مرة. التقت عينا مكسيم عيني فوق إبريق الشاي.

قال: «ما رأيكِ فيه؟».

قلت بحيرة: «لست أدري. لا أبالي».

قال فرانك كراولي: «أعتقد أنهم جميعاً يستمتعون بعرض من هذا القبيل».

لبث مكسيم ينظر إلي بشك فوق إبريق الشاي. ربما اعتقد أنني لا أستطيع تدبير الأمر. لم أشأ أن يفكر ذلك. لم أشأ أن يعتقد أنني سأخذله.

قلت: «أظن أنه سيكون ممتعاً».

«هذا يحسم الأمر طبعاً. حسناً يا فرانك. قم بالترتيبات. يستحسن أن تدعو السيدة دنفرز لمساعدتك. ستتذكر كيف اعتدنا على القيام بالأشياء».

Add to Basket

«لدي السجلات في المكتب. إن هذا لا يعني العمل الكثير. ليس على السيدة دي ونتر القلق بشأن أي شيء».

تساءلت ما الذي سيفعلونه لو قلت فجأة انني سأتولى المسألة كلها. أظن أنهم سيضحكون، ومن ثم يبدأون الكلام عن شيء آخر.

قلت: «بحق السماء ماذا سأرتدي؟ لست بارعة في اختيار الثوب الخيالي. سأخبركم ماذا! سأبقي اختياري مفاجأة حتى آخر دقيقة. ومن ثم سأمنحك أنت وفرانك مفاجأة حياتكما».

استمرت التجهيزات من أجل حفلة الرقص. وكان مكسيم وفرانك منهمكين كل صباح. بدأت أقلق بشأن ما أرتدي، وبدا من البلاهة ألاّ أكون قادرة على التفكير بأي شيء. في ذات مساء حين كنت أبدل ملابسي من أجل العشاء، قُرع باب غرفة نومي فناديت: «أدخل»، ظناً مني أنها خادمتي كلاريس. كانت السيدة دنفرز. قالت:

«آمل أن تسامحيني لإزعاجك. هل قررت ما الذي سترتدينه يا سيدتي؟».

كان هنالك اقتراح من السخرية في صوتها، لا بد أنها سمعت من كلاريس بطريقة ما.

«لا، لم أقرر بعد».

Add to Basket

«أتساءل لما لا تنسخين واحداً من الصور الموجودة في البهو».

«أجل. ربما فكرت بذلك». تساءلت كيف لم تخطر لي فكرة كهذه من قبل. إنها جواب واضح على صعوبتي.

«إن كل الصور الموجودة في القاعة ستكون مناسبة للنسخ خاصة صورة الشابة في الثوب الأبيض التي تحمل قبعتها بيدها». كان صوتها طبيعياً بشكل يثير الدهشة. هل رغبت في أن نكون أصدقاء أخيراً؟ أو هل أدركت أنني لست من أخبر مكسيم عن فافيل؛ وتلك هي طريقتها لتشكرني على صمتي؟

«ألم يقترح عليك السيد دي ونتر شيئاً؟».

«لا، لا، أريد أن أفاجئه هو وكراولي».

«عندما تقررين، أنصحك بأن تصنعيه في لندن. إن فوك، في شارع بوند هو مكان جيد أعرفه. ينبغي أن أدرس الصور في البهو يا سيدتي، خاصة الواحدة التي ذكرت. ولست بحاجة للتفكير بأنني سأخونكِ. لن أنطق بكلمة لأي كان».

«شكراً لك يا سيدة دنفرز». ثم تابعت ارتداء ملابسي وقد أدهشني أسلوبها، متسائلة عما إذا كان لدي فافيل الثقيل الظل كي أشكر من أجله.

Add to Basket

عندما نظرت إلى الصورة، وجدت أنها تعرض ثوباً جيلاً، واحداً يسهل نسخه. إنها لوحة رسمها روبرن لكارولين دي ونتر، التي كانت تتميز بجمال اشتهر في لندن في القرن الثامن عشر. كانت ترتدي عباءة بيضاء بسيطة، ربما كانت القبعة صعبة نوعاً ما، لكن أستطيع حملها بيدي مثلما فعلت. سيتوجب علي ارتداء شعر مستعار، فشعري لن يلتف بهذه الطريقة. ربما سيقوم مركز فوك في لندن بالأمر كله. كان ارتياح لي أنني قررت أخيراً.

قلما استطاعت كلاريس الحفاظ على رباطة جأشها من شدة الإثارة، وبدأت أشعر بشكل مماثل حين اقترب اليوم العظيم. كانت بياترس وزوجها قادمين للإقامة في الليل، كما كان كثير من الناس قادمين لتناول العشاء قبل أن تبدأ حفلة الرقص.

وجدت كلاريس تنتظرني في غرفتي ووجهها قد احمر من جراء الإثارة. ضحكنا على بعضنا كفتيات المدرسة. وقد كان الثوب ملائماً بشكل ممتاز.

«إنه رائع يا سيدتي ـ يناسب ملكة انكلترا!».

«وماذا بشأن تحت ذراعي هنا؛ هل ستظهر هذه الثنية؟».

«كلا يا سيدتي ـ لن يظهر شيء».

«أعطني التجاعيد بانتباه! لا تفسديها». بأصابع مرتعشة

Add to Basket

وضعت اللمسات الأخيرة. «أوه، كلاريس، ما الذي سيقوله السيد دي ونتر؟» لم أتعرف على الوجه الذي رأيته في المرآة. كانت العينان أكبر، بالتأكيد، والفم أدق، والبشرة بيضاء نقية؟ وقفت التجاعيد بعيداً عن الرأس في سحابة صغيرة. راقبت هذا الشخص الذي لم يكن أنا أبداً، ثم ابتسمت.

قالت كلاريس: «لقد نزلوا. إنهم جميعاً واقفون في البهو. السيد دي ونتر، مايجور والسيدة لوسي والسيد كراولي». ذهبت عبر الممر ونظرت إلى الأسفل بعدما تواريت في القنطرة عند أعلى السلم.

كان مكسيم يقول: «لا أدري ما الذي تفعله. إنها فوق في غرفة النوم منذ ساعات».

كانت الفرقة الموسيقية بالقرب مني تجهز معداتها.

همست قائلة: «دع قارع الطبل يعطي قرعاً متواصلاً على الطبل، ثم نادى «مس كارولين دي ونتر». كم كان ذلك ممتعاً! إذ فجأة ملأ صوت الطبل البهو الشاسع؛ ورأيتهم يتطلعون إلى الأعلى بدهشة.

صاح قارع الطبل: «مس كارولين دي ونتر!».

تقدمت إلى قمة السلم ووقفت هناك أبتسم وقبعتي في يدي

Add to Basket

مثل الفتاة في الصورة. انتظرت الضحك والتصفيق الذي سيتلو فيما نزلت السلم ببطء. لم يتحرك أحد. حدق الجميع إلي بصمت، وأطلقت بياترس صيحة صغيرة ثم وضعت يدها على فمها. بقيت أبتسم.

قلت: «كيف حالك يا سيد دي ونتر؟».

لم يتحرك مكسيم، بل نظر إلي وكأسه بيده. شحب وجهه. توقفت وقدم واحدة على الدرجة التالية. هنالك خطب ما. إنهم لم يفهموا. لماذا بدا مكسيم هكذا؟ لماذا وقف الجميع كالأعمدة؟

بعدئذٍ تقدم مكسيم إلى السلم وعيناه لا تغادران وجهي.

«ماذا تظنين أنك تفعلين بحق الشيطان؟» لمعت عيناه غضباً ووجهه بقي شاحباً كالرماد. لم أستطع الحراك، فبقيت واقفة هناك. ثم قلت:

«إنها الصورة. إنها الصورة، تلك التي في البهو».

ساد صمت مطبق. بقينا ننظر إلى بعضنا ولم يتحرك أحد في البهو. ابتلعت ريقي وتحركت يدي إلى حنجرتي ثم قلت: «ما الأمر؟ ما الذي فعلته؟».

Add to Basket

لو أنهم فقط لم ينظروا إلي هكذا بوجوه باردة خالية من التعبير. لو أن أحداً قال شيئاً. عندما تكلم مكسيم ثانية لم أتعرف على صوته. إذ كان هادئاً، بارداً كالجليد ـ ليس الصوت الذي عهدته. قال:

«اذهبي وبدلي ملابسك. لا يهم ما الذي ترتدينه. اعثري على ثوب سهرة عادي ـ أي شيء يكون مناسباً. اذهبي الآن ـ قبل أن يأتي أحد آخر.

لم أستطع الكلام. بقيت أنظر إليه. لقد كانت عيناه الشيء الحي الوحيد في وجهه الشاحب الميت.

«ولماذا تقفين هناك؟» كان صوته كريهاً وغريباً. «ألم تسمعي ما قلته؟».

التفت وركضت من دون أن أرى طريقي عبر الممر ورائي. كانت كلاريس قد ذهبت. ملأت الدموع عيني، ثم رأيت السيدة دنفرز. لن أنسى أبداً التعبير على وجهها ـ وجه شيطان منتصر. إذ وقفت هنالك تبتسم لي. ثم ركضت منها هابطة الممر الطويل إلى غرفتي.

قرع أحد ما ثم فتح الباب ودخلت بياترس. «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟ تبدين شاحبة جداً. لقد أدركت في الحال طبعاً أنها غلطة رهيبة. لم يكن بوسعك أن تعرفي. ولماذا تعرفين؟».

Add to Basket

«أعرف ماذا؟».

«الثوب، يا عزيزتي المسكينة ـ الصورة التي نسخت عنها التي تخص الفتاة في البهو. إن هذا ما فعلته ربيكا في آخر حفلة تنكرية في مندرلي. هذا ما فعلته تماماً. الصورة ذاتها والثوب ذاته. وقفتِ هنالك على السلم، وللحظة واحدة رهيبة ظننت... أيتها الطفلة المسكينة، كيف لكِ أن تعرفي؟».

قلت ببلاهة: «كان ينبغي أن أعرف. كان ينبغي أن أعرف».

«هذه سخافة ـ كيف يمكنك ذلك؟ لم يكن بالشيء الذي يمكن أن يخطر ببالنا. لقد كانت صدمة فقط، أتفهمين. لم يتوقع ذلك أحد منا، ومكسيم...».

«نعم.. مكسيم؟».

«يعتقد، تعلمين، أنكِ فعلتِ ذلك على عمد. لقد قلتِ إنكِ ستفاجئينه، أليس كذلك؟ إنها لنكتة بلهاء. وطبعاً هو لا يفهم. إنها صدمة كبيرة له. لقد أخبرته فوراً أنكِ لا يمكنك فعل ذلك عن عمد، وأنه كان خطأ سيئاً أنكِ اخترتِ تلك الصورة بالذات».

«كان ينبغي أن أعرف. إنه خطأي. كان ينبغي أن أعرف».

«كلا، كلا. لا تقلقي. سيكون بمقدورك شرح الأمر كله له

Add to Basket

بهدوء. سيكون كل شيء على ما يرام. إن أول مجموعة من الناس بدأت في الوصول. لقد أخبرت فرانك أن يبتدع رواية عن ثوبك غير المناسب، وكم أن أملك قد خاب».

لم أقل شيئاً. بقيت جالسة على السرير، وبقيت أرى عيني مكسيم في وجهه الرمادي، وخلفه الآخرون ينظرون إلي، ساكنون كالأعمدة.

Add to Basket

الفصل السابع

الماضي قد عاد

بدا لي في الصباح التالي فيما أنا مستلقية في السرير أنظر إلى الجدار، إلى الضوء المنسكب من النافذة، وإلى سرير مكسيم الفارغ، أن ما من شيء يعيب أكثر من زواج قد فشل. فشل بعد ثلاثة أشهر مثلما فشل زواجي. لأنني توقفت عن بذل أي جهد للتظاهر. والليلة الماضية قد كشفتني جيداً. إن زواجي فاشل. نحن لسنا بشريكين. وأنا فتية جداً بالنسبة لمكسيم، أفتقر إلى الخبرة، والأسوأ هو أنني لا أنتمي إلى عالمه، حتى أن السيدة فان هوبر أدركت ذلك. «أخشى أنك ستندمين على ذلك. أعتقد أنكِ تقترفين خطأً كبيراً». لم أكن لأصغي إليها. ظننت أنها قاسية وظالمة. لكنها كانت على حق. «لا تتخيلي قط أنه يحبك! إنه يشعر بالوحدة. إنه لا يستطيع تحمل ذلك المنزل الكبير الخالي، هذا كل ما في الأمر». لقد كانت تلك هي الحقيقة! لم يكن مكسيم يحبني؛ وهو لم يحبني قط. وهو لم يكن ملكاً لي أبداً، كان ملكاً لربيكا. إنها ما زالت في المنزل مثلما

Add to Basket

قالت السيدة دنفرز، وهو لن يجبني أبداً بسببها.

في الخارج، خيمت سحابة منخفضة رطبة حول النوافذ. كانت بيضاء كثيفة تعبق برائحة الأعشاب البحرية وملح البحر. لم أستطع أن أرى شيئاً خارج النوافذ؛ كل شيء كان مختفياً في السحابة الرطبة والسكون.

فجأة هز انفجار النوافذ. تلاه آخر، ثم آخر. ارتفعت الطيور التي كانت متوارية من الغابات وملأت الهواء الرطب بضجيجها. سمعت وقع خطوات تتراكض في الأسفل. إنه مكسيم. لم أستطع أن أراه، لكنني استطعت سماع صوته.

كان يقول: «هنالك سفينة في مأزق، إن هذه هي شاراتها. إنها تطلب المساعدة. لا بد أنها جنحت عند شاطىء الخليج. لا بد أنها أخطأت خليجنا ظناً منها أنه مرفأ كريث. إن الجو كثيف كأي شيء هناك في الخارج. إن كانت عالقة بالصخور، لن يتمكنوا من تحريكها أبداً. سأنزل كي أرى إن كان بمقدوري فعل أي شيء».

بدأ الجو يستحيل أكثر دفئاً، وشمس شاحبة كانت تحاول أن تشرق، والسحابة المثقلة ترتفع إلى قمم الأشجار. عندما وصلت الشاطىء كانت السحابة قد ولت تقريباً، فرأيت السفينة في الحال ملقية على مسافة ميلين في زاوية مربكة، ومراكب تجديف صغيرة حولها. وكان في المركب الرمادي الداكن الآلي رئيس المرفأ من

Add to Basket

كريث. ثم تبعه مركب آلي آخر مليء بالقائمين بالرحلة. تسلقت الممر فوق الصخرة. لم أر مكسيم هنالك، لكن فرانك كان يتحدث إلى واحد من خفرة الساحل. وقد عرفني خفير الساحل.

«هل أتيت لتشاهدي الشيء الممتع يا سيدة دي ونتر؟ أخشى أنه سيكون عملاً شاقاً. ربما حركوها، لكنني في ريبة من ذلك. إنها عالقة وسريعة حيث هي على تلك الصخور».

«ما الذي سيفعلونه؟».

«سيرسلون غواصاً إلى الأسفل مباشرة ليرى إن كانت قد حطمت مؤخرتها».

ثم هرع صبي صغير إلينا وسأل: «هل سيغرق الملاحون؟».

قال خفير الساحل: «ليس هم من يغرق! إنهم بخير يا بني. إن البحر منبسط مثل قفا يدي. ما من أحد سيُصاب بأذى هذه المرة. ها هو الغواص يا مسز دي ونتر! هل ترينه؟».

قال الصبي الصغير: «أريد أن أرى الغواص».

قال فرانك وهو ينحني ويشير: «ها هو سوف ينزلونه إلى الماء».

«ألن يغرق؟».

«الغواصون لا يغرقون. فالهواء يُضخ إليهم طيلة الوقت. راقبه وهو يختفي. ها هو يذهب!».

Add to Basket

قال الصبي الصغير: «لقد ذهب».

سألت: «أين مكسيم؟».

«لقد أخذ أحد البحارة إلى كريث عند الطبيب. لا أفترض أن شيئاً سيحدث الآن لمدة ساعات. سيضع الغواص تقريره قبل أن يحاولوا تحريكها. أريد غدائي. لِمَ لا تعودين وتتناولين بعضاً منه معي؟».

«أعتقد أنني سأبقى هنا قليلاً. أريد أن أرى ما الذي سيفعله الغواص». لم أستطع مواجهة فرانك تقريباً في تلك اللحظة. أردت أن أكون بمفردي.

كانت الساعة الثالثة حين نظرت إلى ساعتي. نهضت وهبطت التلة إلى الخليج. كان مهجوراً كالعادة، باستثناء وجود بنْ بالقرب من بركة صغيرة في الصخور.

قال وفمه الرطب ينفتح مبتسماً: «نهار سعيد».

قلت: «مساء الخير».

وقف وقال: «هل رأيت السفينة؟».
«أجل. لقد جنحت إلى الشاطئ، أليس كذلك؟».
«إيه؟».

«إنها على الصخور! أتوقع أن ثقباً أصابها».

Add to Basket

كان وجهه خالياً وأبله. قال: «نعم. إنها في الأسفل تماماً. إنها لن تعود ثانية».

«ربما يسحبونها عندما يأتي المد».

لم يجب، بل كان ينظر خارجاً تجاه السفينة. «ستتحطم حيث هي».

«أخشى ذلك».

ابتسم ثانية ومسح أنفه بقفا يده. «سوف تتحطم تدريجياً. لن تغرق كحجر، مثل السفينة الصغيرة». ضحك بهدوء لنفسه، ملتقطاً أنفه. لم أقل شيئاً. «لقد أكلتها الأسماك الآن، أليس كذلك؟».

قلت: «من؟»

«هي، الأخرى».

قلت: «الأسماك لا تأكل المراكب، يا بن».

قال: «ايه؟»، ثم نظر إلي وقد بدا أبله وبارداً ثانية.

قلت: «ينبغي أن أعود إلى المنزل الآن. مساءً سعيداً».

تركته وسلكت الممر عبر الغابات إلى المنزل.

وفيما كنت أتناول الشاي، دخل روبرت.

Add to Basket

«لم يعد السيد دي ونتر بعد، أليس كذلك يا سيدتي؟».

قلت: «لا، هل من أحد يريده؟».

«نعم سيدتي. إنه القبطان سيرل، رئيس المرفأ من كريث. إنه يقول إن الأمر طارىء جداً. لقد حاول الاتصال بالسيد كراولي، لكن ما من جواب».

«حسناً، ينبغي أن أراه حتماً، إن كان الأمر مهماً».

تساءلت ما الذي سأقوله للقبطان سيرل. لا بد أنه أمر يتعلق بالسفينة. لم أستطع أن أفهم ما علاقته بمكسيم.

نهضت وصافحته عندما دخل. «آسفة لأن زوجي لم يعد بعد، يا كابتن سيرل. أخشى أن السفينة أقلقت الجميع. ما الذي سيحدث لها؟ هل سيسحبونها كما تعتقد؟».

كوّن القبطان سيرل دائرة ضخمة بيديه وقال: «هنالك ثقب بهذا الحجم في قعرها. لن تعود إلى موطنها ثانية. لكن لا تهم السفينة. إذ إن صاحبها ووكيل لويد سيسويان الأمر فيما بينهما. كلا يا مسز دي ونتر، ليست السفينة من أتى بي إلى هنا. الحقيقة هي أن لدي خبر للسيد دي ونتر، وقلما أعرف كيف أطلعه عليه». تطلع إلي مباشرة بعينيه الزرقاوين.

Add to Basket

«ما هو نوع الخبر يا كابتن سيرل؟».

أخرج منديلاً ضخماً أبيض من جيبه ومخط أنفه. «حسناً، يا سيدة دي ونتر، إنه ليس أمراً مفرحاً لي بأن أطلعك عليه أيضاً. إن آخر شيء أود القيام به هو تسبب الألم لك أو لزوجك. فجميعنا نحب السيد دي ونتر حباً جماً في كريث، أتعلمين، والعائلة لطالما قامت بأعمال خيّرة. إنه لأمر قاس عليه وقاس عليك أن لا نترك الماضي يرقد بهدوء. لكنني لا أرى كيف نستطيع ذلك». توقف وأعاد منديله إلى جيبه. أخفض صوته مع أننا كنا بمفردنا في الغرفة.

«أرسلنا الغواص كي يتفحص قعر السفينة؛ وجد الثقب، وكان يشق طريقه حول السفينة ليرى الأضرار الأخرى عندما مر بقارب صغير ملقى إلى جانبها، بكامله. إنه رجل ينتمي إلى المنطقة طبعاً، فتعرف إلى المركب في الحال. إنه المركب الصغير الذي يخص مسز دي ونتر السابقة».

قلت ببطء: «أوه، إنه ليس بالشيء الذي يتوقع المرء حدوثه. هل من الضروري إخبار السيد دي ونتر؟ أليس من الممكن ترك المركب هناك؟ إنه لا يتسبب بأي ضرر، أليس كذلك؟».

«بالإمكان تركه في الحالات العادية يا مسز دي ونتر. فأنا مستعد للتخلي عن أي شيء، مثلما قلت سابقاً، كي أوفر تلك

Add to Basket

المشاعر عن السيد دي ونتر. لكن ليس هذا كل شيء. لقد وجد الباب محكم الإقفال، والنوافذ أيضاً. لكنه حطم إحدى النوافذ بقطعة من الصخر، ونظر إلى الداخل. كان مليئاً بالماء؛ لا بد أنها دخلت عبر ثقب في القعر. لم يبدو أن هنالك أي ضرر في أي مكان آخر. ثم واجه أرعب لحظة في حياته، يا سيدة دي ونتر».

توقف القبطان سيرل؛ تطلع فوق كتفه وكأنما سيسمعه أحد الخدم». لقد كانت هنالك جثة في الداخل، ممددة على الأرض. لم يبق هنالك أي لحم متروك عليها، طبعاً، لكنها جثة متكاملة... والآن أنتِ تفهمين، يا مسز دي ونتر، لماذا جئت لأرى زوجكِ؟».

لبثت أنظر إليه، مشدوهة أولاً، ثم مصعوقة، وبعد ذلك شعرت بالغثيان. ثم همست:

«كان من المفروض أنها تبحر بمفردها. لا بد أنه كان معها شخص ما طيلة الوقت آنذاك، ولم يعلم بشأنه أحد».

«يبدو الأمر كذلك».

«من تراه يكون؟ لقد كان الأقارب ليعلموا إن كان أحد مفقوداً، بالتأكيد؟ كما أنه كُتب الكثير عن ذلك في الصحف.

Add to Basket

لماذا ينبغي أن يكون أحدهم باقياً في المركب فيما تم العثور على مسز دي ونتر على بعد أميال، وبعد أشهر؟».

هز القبطان سيرل رأسه. «لا يمكنني معرفة أكثر ما تعرفين. كل ما نعرفه هو أن الجثة هناك وينبغي وضع تقرير بشأنها. إنه لأمر شاق عليكِ وعلى السيد دي ونتر. ها أنتِ استقريتِ بسكينة تبغين السعادة، والآن تحتم حدوث ذلك. لكن علي القيام بواجبي. علي أن أضع تقريراً بشأن تلك الجثة». توقف مختصراً حين فُتح الباب ودخل مكسيم الغرفة.

«مرحباً ـ ما الذي يجري؟ لم أعلم أنك هنا يا كابتن سيرل. هل هنالك من خطب؟».

لم أستطع تحمل ذلك أكثر، فخرجت من الغرفة وكنت كالجبانة، وتركتها.

عندما رجعت، كان مكسيم واقفاً عند النافذة. لم يلتفت. وصلت إلى يده.

«إنني آسفة ـ آسفة جداً جداً».

كانت يده باردة كالجليد. لم يجب، فقلت:

«لا أريدك أن تتحمل ذلك بمفردك. أريد أن أشاركك الأمر لقد كبرت يا مكسيم في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة».

Add to Basket

أحاطني بذراعه وجذبني إلى قربه.

«لقد سامحتني، أليس كذلك؟».

أخيراً تحدث إلي فقال: «سامحتك؟ ماذا لدي كي أسامحك لأجله؟».

قلت: «الليلة الماضية، اعتقدت أنني فعلت ذلك عل عمد».

قال: «آه، ذلك، لقد نسيت. لقد غضبت منكِ، أليس كذلك؟» لم يقل المزيد، بل تابع يمسك بي.

قلت: «ألا يمكننا البدء من جديد يا مكسيم؟ ألا يمكننا البدء من اليوم، ونواجه الأمور سوية؟».

أخذ وجهي بيديه ونظر إلي. للمرة الأولى رأيت كم كان وجهه نحيلاً، وكم هو شاحب ومنهك. وكانت هناك ظلال هائلة تحت عينيه.

«إن الوقت متأخر جداً يا عزيزتي، متأخر جداً. لقد فقدنا فرصتنا الصغيرة للسعادة».

قلت: «لا يا مكسيم، لا».

«بل، لقد انتهى كل شيء الآن. لقد حدث الأمر المحتم».

«أي شيء؟».

Add to Basket

«الشيء الذي طالما توقعته. الشيء الذي حلمت به ليلة بعد ليلة. لم نخلق أنا وأنت للسعادة».

«ما الذي تحاول قوله لي؟».

وضع يده فوق يدي وتطلع إلى وجهي ثم قال: «لقد انتصرت ربيكا».

تطلع إلي وكان قلبي يخفق بشكل غريب وقد استحالت يداي فجأة باردتين تحت يديه.

«لقد كان خيالها بيننا طيلة الوقت ـ كإن خيالها يبعدنا عن بعضنا البعض. تذكرت عينيها وهي تنظر إلي قبل أن تموت. تذكرت تلك الابتسامة البطيئة الأخيرة. كانت تعلم أن ذلك سيحدث حتى في ذلك الوقت. كانت تعلم أنها ستنتصر في النهاية».

همست: «ما الذي تقوله يا مكسيم؟ ما الذي تحاول أن تخبرني؟»

قال: «مركيها، لقد عثروا عليه ـ عثر عليه الغواص بعد ظهر هذا اليوم».

قلت: «أجل، أعرف. لقد جاء القبطان سيرل ليخبرني بذلك. أنت تفكر بالجثة، أليس كذلك؟ الجثة التي عثر عليها الغواص بداخله؟».

«أجل».

Add to Basket

«هذا يعني أنها لم تكن بمفردها، هذا يعني أن هنالك من كان يحر مع ريبكا آنذاك. وينبغي أن تعلم من هو. إن الأمر كذلك، أليس كذلك يا مكسيم؟».

قال: «لا، لا. إنك لا تفهمين».

«أود أن أشاركك هذا، يا مكسيم. أريد أن أساعدك!».

«لم يكن أحدموجوداًمع ريبكا. كانت بمفردها».

لبثت من دون حراك وأخذت أراقب وجهه. ثم قال:
«إنه جسد ريبكا مرمي هناك في المركب».
قلت: «لا، لا».

«إن المرأة، التي دُفنت هي ليست ريبكا. إنه جسد امرأة مجهولة لم يطالب بها أحد ولا تنتمي إلى أي مكان. لم يقع أي حادث. لم تغرق ريبكا أبداً. أنا قتلتها. لقد أطلقت النار عليها في الخليج وحملت جسدها إلى المركب حيث أبحرته في تلك الليلة وأغرقته هناك، حيث عثروا عليه اليوم. إنها ريبكا الملقاة ميتة هناك على أرض المركب. هل ستنظرين إلى عيني وتقولين إنكِ تحبينني الآن؟».

Add to Basket

ساد هدوء تام في المكتبة. عندما يعاني الناس من صدمة هائلة كخسارة طرف، أعتقد أنهم لا يشعرون بذلك في البداية. إن بُترت يدك لن تعلم بذلك لبضع دقائق. بل تستمر في تحسس أصابعك. تمدها وتحركها واحداً واحداً، وطيلة الوقت ليس هنالك من شيء ـ لا يد ولا أصابع. وأنا أيضاً ـ لم أشعر بأي ألم أو أي خوف. شيئاً فشيئاً، سيعود الإحساس إلي، كما ظننت؛ شيئاً فشيئاً سأفهم. إن ما أخبرني به وما حدث سيقعان في المكان المناسب كقطع أحجية. سوف يناسبان بعضهما ليشكلا قالباً. لست بشيء في هذه اللحظة. ليس لدي قلب ولا عقل ولا حواس. أنا مجرد شكل خشبي في ذراعي مكسيم.

قلت ببلاهة: «ماذا سيفعلون؟».

«سوف يدركون أنه جسدها. فكل شيء هناك ـ الحذاء، الخواتم في أصابعها... ثم يتذكرون الأخرى ـ المرأة المدفونة».

همست: «وما الذي تنوي فعله؟».

قال: «لست أدري.. لست أدري».

كان الاحساس يعود إلي شيئاً فشيئاً كما أدركت أنه سيفعل. لم تعد يداي باردتين. كانتا دافئتين ورطبتين. شعرت باحتقان يغمر وجهي وحنجرتي. لقد قتل مكسيم ربيكا. لم تغرق ربيكا أبداً،

Add to Basket

بل قتلها مكسيم. حمل جسدها إلى المركب، ثم أغرق المركب هناك في الخليج. تساقطت قطع الأحجية حولي. إنه صمت مكسيم. الطريقة التي لم يتحدث فيها أبدا عن ربيكا. كرهه للخليج الصغير والكوخ الحجري. «لو لديك ذكرياتي لما ذهبت إلى هناك أيضا». الطريقة التي ذهب فيها بسرعة في الممر عبر الغابات من دون أن ينظر خلفه. «لقد رحلت بسرعة». قال لمسز فان هوبر وتلك النظرة تكسو وجهه. «يقولون إنه لا يستطيع التغلب على موت زوجته». ثوب الحفلة الراقص الرائع في الليلة الماضية، وقدومي إلى أعلى الدرجات في ثوب ربيكا. لقد قال مكسيم: «أنا قتلت ربيكا. أطلقت النار على ربيكا في الكوخ». وقد عثر الغواص عليها مرمية هناك، على أرض المركب.

قلت: «ما الذي سنفعله؟ ما الذي سنقوله؟».

لم يجب مكسيم. وقف هناك بجانب المدفأة وعيناه مفتوحتان باتساع، ينظر أمامه لكن من دون أن يرى شيئاً.

«هل يعرف أحد بذلك؟ أي أحد؟».

هز رأسه قائلاً: «لا».

«لا أحد سوى أنت وأنا؟».

Add to Basket

قلت فجأة: «فرانك! هل أنت متأكد أن فرانك لا يعرف؟».

«كيف يسعه ذلك؟ لم يكن أحد موجوداً هناك إلا أنا. كان الظلام...» توقف. جلس على كرسي ويده على رأسه. ذهبت وجثوت بالقرب منه. جلس هادئاً جداً. أخذت يده من على وجهه وتطلعت إلى عينيه. ثم همست: «أحبك، أحبك. هل تصدقني الآن؟» قبلني وأمسك بيدي بقوة كطفل بحاجة إلى الثقة.

قال: «ظننت أنني سأجن وأنا جالس هنا، يوماً بعد يوم، مترقباً حدوث شيء ما. كنت آكل وأشرب وأحاول أن أبدو طبيعياً أمام فريث، الخدم، السيدة دنفرز - التي لم تكن لدي الشجاعة لطردها، لأنه بمعرفتها لربيكا ربما اعترتها الريبة، وربما حزرت - فرانك دائماً بجانبي. وبياترس العزيزة المسكينة الخرقاء - «تبدو مريضاً للغاية - ألا يمكنك الذهاب لرؤية طبيب؟» كان علي أن أواجههم، كل أولئك الناس، علماً أن كل كلمة كنت أقولها كانت كذباً».

ولِمَ لم تخبرني؟ الوقت الذي أضعناه في حين كان بمستطاعنا أن نكون سوية! كل تلك الأسابيع...».

Add to Basket

قال: «لقد كنتِ بعيدة جداً. دائماً تتجولين في الحديقة مع جاسبر، منطلقة بمفردك. لم تأتِ إلي أبداً هكذا».

همست قائلة: «لِمَ لم تخبرني، لِمَ لم تخبرني؟».

«ظننت أنكِ تعيسة وسئمتِ من الأمور هنا. إنني أكبر منك بكثير. وكان دائماً لديك المزيد لتقولينه لفرانك أكثر مني. لقد كنتِ غريبة معي ـ خرقاء».

كيف كان باستطاعتي القدوم إليك، في حين كنت أعلم أنك تفكر بربيكا؟ كيف كان باستطاعتي أن أطلب منك أن تحبني في حين كنت أعلم أنك ما زلت تحب ربيكا؟».

جذبني قريباً منه وتفحص عيني.

«عما تتحدثين؟ ما الذي تقصدينه؟».

«كلما لمستني ظننت أنك تقارنني بربيكا. كلما تحدثت إلي أو نظرت إلي، أو تمشيت معي في الحديقة، أو جلست للغداء، أحسست أنك تقول لنفسك: «هذا ما فعلته مع ربيكا، وهذا، وهذا». حدق إلي وكأنه لم يفهم. ثم قلت:

«كان هذا صحيحاً، أليس كذلك؟».

Add to Basket

قال: «يا إلهي!» ثم دفعني بعيداً وبدأ يمشي ذهاباً وإياباً في الغرفة.

«ما الأمر؟ ما الأمر؟».

التفت فجأة ونظر إلي وأنا أجلس هناك على الأرض.

«ظننتِ أنني أحببت ربيكا؟ لقد كنت أكرهها، مثلما أخبرك. لقد كان زواجنا كذبة منذ البداية. كانت شريرة وفاسدة إلى أقصى حد. لم نحب بعضنا قط؛ لم نحظ بلحظة من السعادة سوية. لم تمتلك ربيكا الحب ولا العطف. لقد كانت ماهرة، طبعاً ماهرة على نحو شرير. لم يكن أحد ليعلم أنها ليست الأكثر طيبة وسخاءً وثقافة في العالم. كانت تعرف تماماً ما تقوله لكل فرد. لو التقت بكِ لتمشت معك في الحديقة متأبطة ذراعك، متحدثة عن الأزهار والموسيقى والرسم، وعن أي شيء تدرك أنه يستحوذ على اهتمامك، وكنتِ لتخدعين كالباقين، لقد كنتِ لتحبينها حباً جماً. عندما تزوجتها، قيل لي إنني أكثر الرجال حظاً في العالم. إذ كانت بغاية الجمال، في غاية الثقافة وممتعة للغاية... لكن طيلة الوقت راودني شك في قرارة نفسي. كان هنالك شيء ما في عينيها...».

شيئاً فشيئاً تجمعت قطع الأحجية معاً وربيكا الحقيقية اتخذت

Add to Basket

شكلها أمامي. مرة أخرى وقفت على الشاطىء مع بن المسكين. «أنتِ طيبة ـ لستِ كالأخرى. لن تضعيني في السجن، أليس كذلك؟» كان هنالك من يمشي عبر الغابات في الليل. كانت تمنحك الشعور بأنها غادرة. . .

كان مكسيم يتحدث وهو يمشي ذهاباً وإياباً في المكتبة. كان يقول: «اكتشفت أمرها على الفور. بعد خمسة أيام من زواجنا. أخبرتني عن نفسها ـ أخبرتني بأشياء لن أكررها لكائن حي. أدركت حينذاك ما الذي اقترفته، مما تزوجت. . . أقامت صفقة معي. أخبرتني: «أنا أدير لك منزلك ـ اهتم بمندرلي الغالية لك ـ أجعلها أكثر معرض شهرة في البلد لو أحببتَ. وسيزورنا الناس ويحسدوننا، ويتحدثون عنا؛ سيقولون إننا أسعد زوج في انكلترا والأوفر حظاً. يا لها من نكتة يا ماكس!» قالت ضاحكة: «يا لها من نكتة رائعة!» كانت تدرك أنني لأضحي بالكبرياء والشرف والمشاعر الذاتية، وكل شيء، على أن أقف أمام عالمنا الصغير بعد أسبوع من زواجنا وأطلعهم على الأمور المتعلقة بها والتي أخبرتني بها حينذاك. . . فكرت بمندرلي كثيراً. وضعت مندرلي قبل أي شيء آخر. ولم يكن صحيحاً ذلك النوع من الحب. إن الواعظين لا يعظون عنه. إنهم لا يعظون بشأن

Add to Basket

الحجارة والقرميد والجدران، الحب الذي يمكن للمرء أن يكنه لقطعة أرضه، لمملكته الصغيرة».

«مكسيم، يا حبيبي!».
قال: «هل تفهمين؟ هل تفهمين؟».

قلت: «أجل». لكنني نظرت بعيداً عنه كيلا يرى وجهي. ماذا يهم لو أنني فهمت؟ كان قلبي خفيفاً مثل ريشة. لم يكن يحب ربيكا أبداً.

«لا أريد التطلع إلى تلك السنوات، التعاسة، القرف، الكذبة التي عشناها، هي وأنا؛ أمام الأصدقاء، أمام الأقرباء، أمام الخدم. كلهم آمنوا بها هنا في الأسفل، جميعهم أعجبوا بها. لم يدركوا أبداً كيف كانت تضحك عليهم من وراء ظهورهم. أستطيع أن أتذكر أياماً حين كان المكان يغص بعرض أو بآخر ـ حفلة رقص، أو حفلة حديقة ـ كانت تتمشى وذراعها تتأبط ذراعي، ترسم ابتسامة كابتسامة طفل على وجهها؛ ومن ثم في اليوم التالي تفيق عند بزوغ النهار لتنطلق إلى لندن، إلى شقتها المحاذية للنهر، كحيوان ينطلق إلى حجره في حفرة، لتعود إلى هنا في نهاية الأسبوع، بعد خمسة أيام لا يمكن التحدث عنها. أوه، حافظت على جانبي من الصفقة جيداً. لم أتخل عنها. وذوقها الجيد جعل مندرلي على ما هي اليوم. الحدائق، غرفة الرسم،

Add to Basket

حتى الأزهار في الوادي السعيد - جمال مندرلي الذي يتحدث الناس عنه ويصورونه ويرسمونه، كله بفضلها، بفضل ربيكا».

لم أقل شيئاً. أمسكت به عن كثب. أردته أن يتحدث، حتى تخرج منه مرارته، وكل كراهية وقرف تلك السنوات الضائعة.

وهكذا عشنا، شهراً إثر شهر، سنة إثر سنة. قبلت كل شيء - بسبب مندرلي. ما فعلته في لندن لم يؤثر بي - لأنه لم يؤذِ مندرلي. وكانت هي حذرة في البداية؛ لم يكن هنالك أي همس حولها. وما لبثت أن بدأت تدعو أصدقاءها إلى هنا. كانت تستقبلهم في الكوخ في الخليج. أخبرتها أن عليها الالتزام بجانبها من الصفقة. بإمكانها رؤية أصدقائها في لندن، لكن مندرلي هي ملك لي. ابتسمت، لكن لم تقل شيئاً. ثم بدأت تدير فرانك - فرانك المسكين المثير للشفقة، الذي لم يفهم، والذي اعتقد دائماً اننا زوجان سعيدان مثلما كنا نتظاهر.

«اتهمت ربيكا، وكان لنا مشهد رهيب ومقيت. ذهبت إثر ذلك إلى لندن، ومكثت هنالك شهراً. ظننت أنها تعلمت درسها. ثم جاءت بياترس وغيلز لقضاء عطلة نهاية الأسبوع،

Add to Basket

فأدركت عندئذٍ ما كنت أرتاب بشأنه من قبل، إن بياترس لم تحب ربيكا. أظن أنها فهمتها، وأيقنت أن هنالك خطأ ما. خرج غيلز يبحر مع ربيكا، وعندما رجعا استطعت أن أرى أنها بدأت به مثلما فعلت بفرانك».

كل قطع الأحجية ثبتت في مكانها لدي الآن ـ أسلوب فرانك الأخرق عندما تحدثت عن ربيكا. أسلوب بياترس الغريب. الصمت الذي ظننته للشفقة كان صمتاً يشوبه القلق والذنب. بدا أنه أمر لا يصدق الآن انني لم أفهم من قبل. تساءلت كم من الناس هنالك عانوا لأنهم لم يستطيعوا الإفلات من الإدراك الذاتي والارتباك. لم تكن لدي الشجاعة أبداً كي أسأل عن الحقيقة. لو اتخذت خطوة واحدة، لأخبرني مكسيم بتلك الأشياء منذ أشهر.

ثم تابع يقول: «أصبحت ربيكا حذرة مجدداً. كان تصرفها خالياً من الخطأ في الظاهر. لكن لو صدف أنني كنت بعيداً خلال وجودها في مندرلي، لم أكن متأكداً مما سيحدث. فهنالك فرانك وغيلز. كان بمستطاعها الإمساك بأحد العمال في المقاطعة، أحد ما ابتداءً من كريث، أي أحد... ومن ثم توجه الضربة. الكلام، المشاعر، الإهانة التي خشيتها».

Add to Basket

«كان لديها ابن عم ـ شخص كان في الخارج، لكنه عاد ليعيش في انكلترا ثانية. بدأ يتردد هنا عندما أكون بعيداً. شخص يدعى جاك فافيل».

«أعرفه؛ لقد جاء إلى هنا يوم كنت في لندن».

«رأيته أيضاً؟ لماذا لم تخبريني؟ علمت بذلك من فرانك الذي شاهد سيارته تنعطف عند البوابات».

قلت: «لم أشأ ذلك. ظننت أنه يذكرك بريبكا».

«يذكرني؟» همس مكسيم. «وكأنني بحاجة إلى التذكير...».

توقف، فتساءلت إن كان يفكر مثلما كنت أفكر، بالمركب الغارق تحت المياه في الخليج.

قال مكسيم: «اعتادت أن تستقبل ذاك الشخص فافيل في الكوخ. وكانت تقول للخدم إنها ذاهبة للإبحار، وإنها لن تعود قبل الصباح. وبعد ذلك كانت تمضي الليل هنالك معه. أنذرتها مرة ثانية. قلت إن وجدته هنالك، في أي مكان في الأراضي، سأطلق النار عليه.. إن مجرد التفكير بأنه يتمشى في الغابات في مندرلي، في أماكن كالوادي السعيد، كان يثير جنوني. أخبرتها أنني لا أطيقه. بعدئذٍ، ذهبتُ إلى لندن في ذات يوم، وعادت

Add to Basket

ثانية في اليوم ذاته، وهذا ما لم تعتد عليه. لم أكن أتوقعها. تناولتُ العشاء في تلك الليلة مع فرانك في منزله.

عدتُ بعد العشاء في حوالى العاشرة والنصف، ورأيت أشياءها في القاعة. تساءلت لماذا عادت بحق الشيطان. لكنها لم تكن هنا. اعتقدت أنها رحلت ثانية - إلى الخليج. وأدركت أنه لا يسعني تحمل حياة الأكاذيب والقرف هذه أكثر من ذلك. فكرت أن آخذ بندقية وأخيف ذلك المخلوق، أن أخيفهما كلاهما. توجهت إلى الكوخ مباشرة، لم يعلم الخدم أبداً أنني رجعت إلى المنزل. تسللت إلى الحديقة وعبر الغابات. رأيت ضوءاً ينبعث من نافذة الكوخ، فدخلت مباشرة. ولدهشتي وجدت ربيكا بمفردها. كانت تبدو مريضة وغريبة الأطوار.

«بدأت الحديث مباشرة عن فافيل. «هذه هي النهاية، هل تفهمين؟ إن ما تفعلينه في لندن لا يهمني. تستطيعين العيش هنالك مع فافيل أو مع أي شخص تحبين. لكن ليس هنا. ليس في مندرلي».

«لم تقل شيئاً للحظة. نظرت إلي ثم ابتسمت. «لنفرض أنه يناسبني أكثر العيش هنا؟ ماذا بعد؟».

قلت: «تعرفين الشروط. لقد حافظت على جانبي من صفقتنا

Add to Basket

التعيسة، أليس كذلك؟ لكنكِ غششتِ. تعتقدين أن باستطاعتك معاملة منزلي وبيتي مثل حجرك في لندن. لقد تحملت ما فيه الكفاية، ويا إلهي، ربيكا، هذه فرصتك الأخيرة».

«مددت نفسها ووضعت ذراعيها فوق رأسها وقالت:

«أنت على حق يا ماكس. حان الوقت كي أطوي صفحة جديدة». بدت شاحبة جداً وهزيلة للغاية. بدأت تسير ذهاباً وإياباً ويداها في جيبيها.

قالت: «هل سبق أن فكرت كم من الصعب عليك إقامة دعوى ضدي؟ في قاعة المحكمة، أعني. هل تدرك أنه ليس لديك الأمل كي تثبت أي شيء؟ إن كل أصدقاءنا ـ حتى الخدم ـ يعتقدون أن زواجنا ناجح».

«وماذا بشأن فرانك؟ ماذا بشأن بياترس؟».

«رفعت رأسها وضحكت». «أي نوع من القصص يستطيع فرانك روايتها ضد قصتي؟ أما عن بياترس ـ ألن يكون أسهل ما في العالم إظهارها بأنها امرأة عادية حسودة فقد زوجها عقله ذات مرة وجعل من نفسه أحمق؟ اوه، لا يا ماكس ـ سيكون وقتاً عصيباً تحاول فيه أن تثبت شيئاً ضدي». وقفت تراقبني، يداها

Add to Basket

في جيبيها وابتسامة على وجهها. «هل تدرك أنني أستطيع دفع دائي على القسم بأي شيء أطلب منها أن تقسم به؟ وأن سائر الخدم سيتبعون خطاها؟ إنهم يعتقدون أننا نعيش معاً في مندرلي كزوج وزوجة، أليس كذلك؟ وكذلك يفعل كل إنسان، أصدقاؤك، كل عالمنا الصغير. حسناً، كيف يسعك أن تثبت أننا لا نفعل؟».

«جلستْ على طرف الطاولة تؤرجح ساقها وتراقبني. ثم قالت: «ألم نقم بأدوار الزوج والزوجة المحبين جيداً جداً؟». أذكر مراقبة قدمها تلك، تتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء، فيما بدأت عيناي وعقلي يتأججان بطريقة غريبة وسريعة. «نستطيع أن نجعلك تبدو أبله للغاية. أنا وداني». قالت برقة. «نستطيع أن نجعلك تبدو أبله لدرجة أن ما من أحد سيصدقك يا ماكس لا أحد على الإطلاق». ما لبثت قدمها تلك تتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء. فجأة انزلقت عن الطاولة ووقفت أمامي وهي ما تزال تبتسم ويداها في جيبيها. لو أنجبت طفلاً يا ماكس، لا أنت ولا أحد في العالم يمكنه أن يثبت أنه ليس لك. سوف يكبر هنا في مندرلي وهو يحمل اسمك. لن يكون بمستطاعك أن تفعل شيئاً. وعندما تموت، ستكون مندرلي له. لن يمكنك الحؤول دون ذلك. سوف يعجبك ذلك، إليس كذلك؟ سوف تستمتع بمشاهدة ابني نائماً تحت الأشجار، يلعب على العشب، يقطف

Add to Basket

الأزهار في الوادي السعيد؟ ستحب رؤية ابني يكبر يوماً بعد يوم، وأنت تعلم بأنك عندما تموت، كل هذا سيكون له؟».

«ذهبت إلى النافذة بعد دقيقة وبدأت تضحك. استمرت في الضحك. ظننت أنها لن تتوقف. «يا إلهي، كم هذا مضحك! كم أنه مضحك ورائع! حسناً، سمعتني أقول إنني سأطوي صفحة جديدة، أليس كذلك؟ والآن تعرف السبب. سيكونون سعداء، أليس كذلك، كل الناس هنا؟ وسيقولون: «إن هذا ما كنا نأمله دائماً يا سيدة دي ونتر»، وسأكون الأم الممتازة يا ماكس، مثلما كنت الزوجة الممتازة. وما من أحد منهم سوف يحزن، ما من أحد منهم سيعرف أبداً».

«استدارت وواجهتني مبتسمة ويدها في جيبها. عندما قتلتها كانت ما تزال تبتسم. أطلقت النار على قلبها. اخترقتها مباشرة. لم تقع على الفور. وقفت هنالك تنظر إلي، وتلك الابتسامة البطيئة على وجهها، وعيناها مفتوحتان باتساع..».

قال مكسيم: «كان علي المجيء بالماء من الخليج. كان علي الذهاب مراراً من أجله. إذ كان هنالك دم حيث كانت ممددة على الأرض. كما أن الريح بدأت تهب أيضاً. ولم يكن هنالك

Add to Basket

مقبض على النافذة، فبقيت النافذة تقرقع إلى الأمام وإلى الوراء، فيما انحنيت هنالك على الأرض وتلك الخرقة، وسطل المياه بجانبي».

وحملتها إلى المركب. لا بد أنها كانت الحادية عشرة والنصف حينذاك، أو الثانية عشرة تقريباً. كان الظلام حالكاً ولم يكن هنالك قمر؛ كانت الريح تهب بشدة في بعض الأحيان، من الغرب. حملتها إلى الأسفل وتركتها هناك. وبعد ذلك كان علي أن أبحر خارج المرفأ الصغير عكس المد، ومركب التجذيف خلفي. كان الأمر شاقاً. كانت الريح تهب بقوة، لكن الصخور كانت تحميني. أتذكر أن الشراع علق. لم أكن قد أبحرت منذ فترة طويلة. لم أخرج أبداً مع ربيكا. لكنني أخرجت المركب إلى الخليج، خلف الصخور، حاولت أن أقلبها، كي تبتعد عن الصخور. فجأة هبت الريح بقوة أكبر؛ ومزقت الحبل من يدي. بدأ الشراع يصخب ويهتز. لم أستطع أن أتذكر ماذا ينبغي على المرء أن يفعله ـ لم أستطع أن أتذكر. حاولت الوصول إلى الحبل، لكنه كان كالسوط في الهواء فوق رأسي. كانت الرياح قادمة من الأمام مباشرة. كنا نُدفع إلى الوراء. كان الليل مظلماً، مظلماً لدرجة أنني لم أستطع أن أرى شيئاً من المركب الأسود اللزج. على أي حال، نزلت إلى الأسفل. أمسكت بشيء ثقيل بيدي. إن لم أفعل شيئاً الآن، سيكون الوقت متأخراً جداً! وبما أننا كنا

Add to Basket

نندفع في هذا الشكل، سنكون خارج المياه العميقة بسرعة. وجهت الآلة الحادة إلى الألواح في القمر. كانت ثقيلة؛ حطمت أحد الألواح عمودياً، سحبتها ووجهتها إلى لوح آخر. ثم آخر. تدفقت المياه فوق قدمي. تركت ريبكا هنالك على الأرض، وأغلقت النوافذ والباب. عندما صعدت على متن المركب رأيت كم اندفعنا قريباً من الشاطىء. ألقيت ببعض الأغراض المفكوكة إلى البحر ـ بعض الحبال والمجاذيف. تسلقت إلى قارب التجذيف وراقبت. كانت تغرق. وكانت الأشرعة ما تزال تتخبط؛ ظننت أن أحداً ما سيسمع ـ أحداً ما يمشي على الصخور في وقت متأخر من الليل، أو بعض الصيادين من كريث لا أستطيع رؤية مراكبهم. كانت تغرق عند الرأس. ثم انقلبت عند جانبها. فجأة لم تعد هناك. أتذكر أنني نظرت بإمعان حيث كانت. ثم جذفت عائداً إلى المرفأ. عندما بدأت تمطر.

توقف مكسيم محدقاً أمامه من دون حراك. ثم التفت إلي وقال:

«هذا كل شيء. ليس هناك المزيد لأخبرك به. سرت في الممر عبر الغابات. دخلت إلى المنزل. أتذكر خلعي الملابس، كانت الرياح تعصف وتمطر بقوة على نحو متقطع. كنت ما أزال جالساً هناك على السرير عندما قرعت السيدة دنفرز الباب، ذهبت

Add to Basket

وفتحته وأنا أرتدي ملابس النوم لأتحدث إليها. كانت قلقة بشأن ربيكا. طلبت منها العودة للنوم وأغلقت الباب مجدداً. ذهبت وجلست بالقرب من النافذة أراقب المطر وأصغي إلى البحر في الأسفل في الخليج».

جلسنا هناك معاً من دون أن نقول شيئاً. لبثت ممسكة بيديه الباردتين.

قال مكسيم: «لقد غرقت قريباً جداً. كنت أقصد أن آخذها خارج الخليج. لم يكونوا ليعثروا عليها أبداً هناك، لقد كانت قريبة جداً».

«إنها السفينة. لم يكونوا ليعثروا عليها لولا السفينة».

قال مكسيم: «لقد كانت قريبة جداً».

لبثنا صامتين مجدداً. وبدأت أشعر أنني مرهقة جداً.

قال مكسيم: «كنت أعلم أنه سيحدث ذات يوم. لقد كانت مسألة وقت فقط. إن العثور عليك لم يشكل أي فرق، أليس كذلك؟ حبك لا يغير الأمور أبداً، لقد كانت ربيكا تعلم أنها ستفوز في النهاية. لقد رأيت ابتسامتها عندما ماتت».

«لقد ماتت ربيكا. إنها لا تستطيع إيذاءك بعد الآن».

Add to Basket

«هناك جسدها، لقد رآه الغواص، إنه هناك ممدد على أرض المركب».

«علينا أن نشرح الأمر. علينا أن نفعل! لا بد أنه جسد شخص تجهله. شخص ما لم تره من قبل».

قال: «لا بد أن أغراضها ما تزال هناك، الخواتم على أصابعها. حتى لو اهترأت ملابسها في المياه سيكون هنالك شيء ما ليطلعهم، إنه ليس كجسد مفقود في البحر، تخبط على الصخور».

«كيف ستكتشف؟ كيف ستعرف؟».

«سيهبط الغواص ثانية عند الخامسة صباحاً وقد قام سيرل بكل التدابير. سيحاولون رفع المركب. ولن يكون أحد في الجوار. سوف أذهب معهم».

«وبعد ذلك؟».

«سيحاول سيرل إعادتها إلى كريث ووضعها على اليابسة. سيخرج المياه منها، وسوف يحضرون طبيباً».

«إذا اكتشفوا أنها ربيكا، ينبغي أن تقول إن الجسد الآخر المدفون في المقبرة هو خطأ ـ مريع. ينبغي أن تقول إنه عندما ذهبت إلى إدجكومب كنت مريضاً ولم تدرك ما تفعله. لم تكن متأكداً،

Add to Basket

حتى آنذاك. لم تتمكن من إدراك الحقيقة. كانت غلطة ـ مجرد غلطة ؛ ستقول ذلك، ألن تفعل؟».

«نعم»، قال: «نعم».

قلت: «لا يمكنهم إثبات أي شيء ضدك. لم يشاهدك أحد في تلك الليلة. لقد آويت إلى الفراش. لا يمكنهم أن يثبتوا أي شيء. ما من أحد يعرف سوى أنت وأنا. ما من أحد أبداً، ولا حتى فرانك. نحن الشخصان الوحيدان في العالم اللذان يعرفان يا مكسيم، أنت وأنا».

قال: «نعم، نعم».

«سيعتقدون أن المركب انقلب وغرق عندما كانت ربيكا في الأسفل؛ سيعتقدون أنها نزلت لإحضار حبل أو شيء ما، وفيما كانت هنالك هبت الريح عبر الخليج، فانقلب المركب وعلقت ربيكا. سوف يظنون ذلك، أليس كذلك؟».

قال: «لست أدري. لست أدري».

فجأة بدأ الهاتف يرن في الغرفة الصغيرة خلف المكتبة.

دخل مكسيم وأغلق الباب. دخل روبرت ليأخذ الشاي. وقفت وأنا أدير ظهري له كيلا يرى وجهي. تساءلت متى

Add to Basket

سيعرفون ـ كم سيستغرق الخبر كي ينتشر. عندما غادر روبرت، عاد مكسيم إلى الغرفة.

«إنه الكولونيل جوليان. لقد تحدث الآن مع سيرل. إنه خارج إلى المركب معنا غداً».

«لماذا الكولونيل جوليان؟ لماذا؟».

«إنه قاضي الأمن في كريث وينبغي أن يكون حاضراً».
«ماذا قال؟».

«سألني إن كانت لدي أية فكرة حول الجسد، قلت إنني لا أعرف. قلت اننا ظننا أن ربكيا كانت بمفردها. قلت إنني لم أعهد وجود أي صديق».
«وهل قال شيئاً بعد ذلك؟».

«سألني عما إذا كان ممكناً أنني ارتكبت خطأ عندما ذهبت إلى إدجكومب».

«قال ذلك؟ قال ذلك حقاً؟».
«أجل».
«وأنت؟».
«قلت هذا ممكن، لست أدري».

«سيكون هناك معك غداً، عندما تنظر إلى المركب؟ هو وكابتن سيرل وطبيب؟».

Add to Basket

«والمفتش ولش، أيضاً».
«والمفتش ولش!».
«نعم».
«لماذا المفتش ولش؟».
«إنها العادة حين تكتشف جثة».

نظر بسرعة من النافذة. «ظننت أنها ستهب من الجنوب الغربي، لكن الريح خفت ثانية».

قلت: «أجل».
قال: «ستكون المياه هادئة ومنبسطة بالنسبة للغواص».

ارتدينا للعشاء كالعادة. وبعد ذلك عدنا إلى المكتبة. لم نتكلم كثيراً ـ جلست على الأرض عند قدمي مكسيم ورأسي على ركبتيه. لم تعد هنالك أية خيالات بيننا. تساءلت كيف يسعني أن أكون سعيدة هكذا فيما العالم الصغير حولنا أسود هكذا. إنه لنوع غريب من السعادة. ليس كالذي حلمت به. لم يكن هناك ما يدعو لشدة الانفعال أو الإلحاح. إنها سعادة هادئة ساكنة. كانت نوافذ المكتبة مفتوحة على مصراعيها، وعندما لم نكن نتحدث، نظرنا إلى السماء المظلمة الباردة.

وعند حوالى السابعة والنصف من الصباح التالي أتت رسالة مفادها أن مكسيم سيحضر فرانك والكولونيل جوليان إلى الغداء.

Add to Basket

مر الصباح ببطء. كان الجو حاراً جداً، فصعدت واستبدلت ملابسي بثوب أرق. ثم جلست وانتظرت. وعند الواحدة إلا خمس دقائق سمعت صوت سيارة في الممر، وأصوات أشخاص. وقفت أنتظر قدومهم إلى الغرفة. بدا وجهي شاحباً للغاية في المرآة. دخل مكسيم وفرانك والكولونيل جوليان.

قال الكولونيل جوليان: «كيف حالك؟» تكلم بهدوء، باتزان، كطبيب.

قال مكسيم: «قدمي شراباً إلى الكولونيل جوليان. سوف نغتسل فقط».

لم يكن الكولونيل جوليان ليشرب شيئاً. فتناولت بعضاً منه كي يكون لدي ما أمسك به. جاء ووقف بجانبي عند النافذة، قال بلطف:

«إنه لأمر مزعج جداً يا سيدة دي ونتر، أشعر فعلاً معك ومع زوجك كثيراً».

قلت: «شكراً لك». وضعت الكأس على الطاولة. كنت أخشى أن يلاحظ أن يدي ترتعش.

«إن ما يجعله صعباً هكذا هو قول زوجك إنه تعرف إلى الجثة الأولى في ادجكومب منذ أكثر من سنة».

Add to Basket

«لست ـ لست أفهم تماماً».
«إذن لم تسمعي عما عثرنا عليه في هذا الصباح؟».

«أعرف أن هنالك جثة. لقد عثر الغواص على جثة».

«أجل». وبعد ذلك قال وهو ينظر فوق كتفه تجاه الباب.
«أخشى أنها هي، من دون شك. لا يسعني الدخول في التفاصيل، إلا أن كلاً من زوجك والدكتور فيليبس متأكدان».

توقف فجأة، وابتعد عني. إذ عاد مكسيم وفرانك إلى الغرفة.

قال مكسيم: «الغداء جاهز، ألا ندخل؟».

وفيما كنا نتناول القهوة، بدأ الكولونيل جوليان مجدداً بطريقته الهادئة ـ نظرت بثبات إلى طبقي. «كنت أقول لزوجتك قبل الغداء، يا دي ونتر، إن الجانب المربك في كل هذا العمل هو الحقيقة أنك قلت بأنك تعرفت إلى تلك الجثة الأصلية».

قال فرانك بسرعة: «أظن أن الخطأ كان طبيعياً. إذ اقترح أن الجسد كان لها عندما طُلب منه الذهاب إلى إدجكومب علاوة على ذلك، لم يكن مكسيم بحال جيدة آنذاك. أردت الذهاب معه، لكنه صمم على الذهاب بمفرده. لم يكن في حالة ملائمة للتقرير بشأن أي شيء من هذا القبيل».

Add to Basket

قال مكسيم: «هراء. كنت بحال جيدة تماماً».

«حسناً، ليس من المجدي المضي في ذلك كله الآن. لقد تعرفت على الجثة، والآن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو أن تعترف بخطأك يبدو أن ما من شك في ذلك الآن. أتمنى لو تُعفى من الاستجواب العام، لكن أخشى أن هذا مستحيل، ليس بحاجة أن يستغرق وقتاً طويلاً، إنه فقط مسألة قولك إنك تعرفت على الجثة، ومن ثم جعل تاب، صانع القارب، القول إن المركب كان بحالة جيدة عندما كان في ساحته آخر مرة. كلا، إن ما يقلقني هو الضجة التي ستثيرها الصحف حوله. إن الأمر لمحزن ومؤلم لك ولزوجتك».

قال مكسيم: «إن الأمر على ما يرام. نحن نتفهم الوضع».

«من شدة سوء الحظ أن تدفع السفينة إلى الشاطىء هناك. لولا ذلك لبقيت المسألة كلها لابثة بسلام، الشيء الوحيد هو، نحن ندرك الآن أن وفاة السيدة دي ونتر كانت فجائية ـ وليست بالمسألة البسيطة التي تخيلناها. ليست مسألة محاولة للسباحة».

قال مكسيم: «لا».

«لا بد أنها ذهبت إلى الأسفل لإحضار شيء ما، وبعد ذلك علق الباب، وفجأة قبضت ريح شديدة على المركب وما من أحد

Add to Basket

عند المنظار. يبدو أن هذا هو الحل، ألا تعتقد ذلك يا كراولي؟».

قال فرانك: «أوه، نعم - بلا ريب».

تطلعت فرأيت فرانك ينظر إلى مكسيم. التفت بعيداً ثانية في الحال، لكن ليس قبل أن أرى وأفهم التعبير في عينيه. إن فرانك يعلم. ومكسيم لم يعرف أنه عرف. تابعت تحريك قهوتي. وكانت يدي حارة ورطبة.

قال الكولونيل جوليان، «أعتقد أننا جميعاً، عاجلاً أم آجلاً، نرتكب خطأ في الحكم. لا بد أن السيدة دي ونتر كانت تعلم كيف أن الريح تأتي حول الصخرة في ذلك الخليج؛ فلم يكن آمناً ترك مركب صغير كهذا لنفسها. لا بد أنها أبحرت بمفردها عبر تلك البقعة عشرات المرات، ومن ثم، في ذات مرة، غامرت، والمغامرة قتلتها».

قال فرانك: «إن الحوادث تجري بسهولة، حتى بالنسبة إلى الناس الأكثر تجربة».

«أجل. لكن لو لم تنزل السيدة دي ونتر إلى الأسفل لما وقع الحادث. إنه لأمر غريب أن تفعله. لم أعهد أنها اقترفت خطأ في مركب. فهذا النوع من الأمور لا يفعله سوى مبتدئ».

«كانت تعصف بشدة في تلك الليلة. ربما علق شيء ما،

Add to Basket

وبعد ذلك تسللت إلى الأسفل من أجل إحضار سكين».

«طبعاً، طبعاً. حسناً، لن نعرف أبداً. مثلما قلت، أتمنى لو أستطيع ايقاف التحقيق، لكنني لا أستطيع. إنه تقريباً مستحيل. فقط من أجل الشكليات. لكنني أخشى أننا لا نستطيع إبقاء المحققين الصحافيين خارج ذلك».

عندما قال وداعاً، لم أنظر اليه؛ خشيت أن يفهم عيني، لم أشأ أن يعرف أنني كنت أعرف، بعد ذلك قال مكسيم: «سيكون الأمر على ما يرام، أنا واثق تماماً. لقد رأيت كيف كان جوليان على الغداء، وفرانك. لن تكون هناك أية صعوبة في التحقيق، سيكون الأمر على ما يرام».

لم أقل شيئاً، أمسكت بذراعه بقوة.

«إن الأمر كان واضحاً هذا الصباح. إن ما رأيناه كان كافياً من أجل أن يتعرف الدكتور فيليبس على الجثة، حتى من دوني. ليست هنالك من إشارة على ما فعلته، إذ ان طلقتي لم تصب العظم. لقد سمعتِ ما قالوه؛ لقد ظنوا أنها علقت هنالك، في الأسفل. وسيعتقدون ذلك أثناء التحقيق أيضاً. إن الدكتور فيليبس سيخبرهم بذلك».

توقف، لكنني لم أتكلم أيضاً، فقال: «أكترث فقط من

Add to Basket

أجلك. لو عاد الأمر مجدداً لما فعلت شيئاً سوى ذلك. أنا سعيد لأنني قتلت ربيكا. لن أندم على ذلك أبداً، أبداً. لقد انتهى الأمر إلى الأبد، تلك النظرة التائهة المضحكة الشابة التي أحببت. لن تعود ثانية. لقد قتلتها أيضاً عندما أخبرتك عن ربيكا... لقد رحلت في خلال أربع وعشرين ساعة. فأنتِ أكبر من ذلك بكثير...».

نشر النبأ في كل الصحف في اليوم التالي. صور مكسيم ومندرلي. وصفوا ربيكا على أنها جميلة، ماهرة، محبوبة، ومكسيم أنه تزوج ثانية في الربيع التالي، آتياً بزوجته الشابة إلى مندرلي، ومقيماً حفلة رقص تنكرية من أجلها، ومن ثم، في اليوم التالي، يتم العثور على جسد زوجته الأولى عالقاً في المركب عند قعر الخليج. كوّن النبأ قصة جيدة.

فكرت بكل الأشياء التي يمكنهم قولها، لو أدركوا الحقيقة، على الصفحة الأولى. الإعلانات في لندن. الصبية بائعو الصحف الهاتفون في الشوارع. تلك الكلمة المريعة المؤلفة من ستة أحرف، مطبوعة بالحرف الكبير الأسود...

جاء فرانك بعد الإفطار. بدا شاحباً ومنهكاً، وكأنه لم ينم. قال: «لقد طلبت منهم تحويل كل المخابرات الهاتفية إلى مندرلي إلى المكتب».

Add to Basket

«لو اتصل الصحافيون، أستطيع التعامل معهم».

«أولئك الصحافيون!».

«نحن جميعاً نريد أن نرفسهم، لكن عليك الاطلاع على وجهة نظرهم. إنه عملهم. لكن لست مضطراً إلى رؤيتهم أو التحدث إليهم يا مكسيم. سأقوم بكل ذلك عنك. كل ما عليك التفكير به هو شهادتك عند الاستجواب».

«أعرف ما ينبغي قوله».

«بالطبع تعرف، لكن لا تنسى أن هوريدج العجوز سيكون المسؤول. إنه شخص غريب الأطوار يحب الغوص في التفاصيل فقط ليظهر كم هو دقيق. لا ينبغي أن تدعه يقلقك».

«ولمَ أقلق، بحق الشيطان؟ ليس لدي ما أقلق من أجله».

«بالطبع، لا. لكنني تعرضت إلى تلك التحقيقات من قبل، ومن السهل أن تشعر بالقلق. لا ينبغي أن تفقد صوابك».

قلت: «إن فرانك على حق. أعرف تماماً ماذا يعني. كلما سار الأمر بسرعة وبساطة كلما كان الأمر سهلاً لكلٍ منا. ثم، ما إن ينتهي ذلك حتى ننسى الأمر كله، وكذلك سيفعل الآخرون سوانا، أليس كذلك يا فرانك؟».

Add to Basket

قال فرانك: «أجل، بالطبع».

لبثت اتجنب عينيه، لكنني كنت متأكدة أكثر من ذي قبل أنه يعرف الحقيقة، وأنه لطالما عرفها منذ البداية.

Add to Basket

الفصل الثامن

الاستجواب

لبث مكسيم هادئاً في الطريق إلى الاستجواب. وكان الأمر كمن يذهب مع شخص إلى المستشفى ـ شخص سيخضع إلى عملية ـ جاهلاً ما سيحدث، وما إذا كانت العملية ستنجح. كانت يداي باردتين جداً وقلبي يخفق على نحو غريب. عندما وصلنا، قررت أن لا أدخل بل أن أنتظر في الخارج في السيارة. قالوا إنهم لن يتأخروا.

كان يوم عمل قصير. بدت الدكاكين بطيئة الحركة. وكان هناك عدد قليل من الناس في الجوار. جلست أنظر بصمت إلى الدكاكين فيما كانت الدقائق تمر. تساءلت ما الذي يحدث. خرجت من السيارة وبدأت أسير ذهاباً وإياباً. ومن دون أن أقصد، توجهت إلى المبنى حيث يتم التحقيق.

ظهر شرطي من حيث لا أدري وقال:
«لا يمكنك الانتظار هنا».

Add to Basket

قلت: «آسفة»، وذهبت باتجاه الدرجات المؤدية إلى الشارع.

«أوه، اعذريني يا سيدتي، أنتِ طبعاً السيدة دي ونتر، أليس كذلك؟ يمكنك الانتظار هنا إن شئتِ».

أدخلني إلى غرفة صغيرة فارغة، تشبه غرفة الانتظار في محطة سكة الحديد. جلست هناك. مرت خمس دقائق ولم يحدث شيء. وكان الأمر أسوأ من البقاء في السيارة خارجاً. نهضت وذهبت إلى الممر، وكان الشرطي واقفاً هناك.

«كم سيلبثون هناك؟».
«سأذهب وأسأل إن أردتِ».

عاد مجدداً في خلال لحظة وقال: «لا أعتقد أنهم سيبقون أكثر بكثير من ذلك. لقد أدلى السيد دي ونتر لتوه بشهادته. كما أن الكابتن سيرل والغاطس والدكتور فيليبس قد أدلوا بشهادتهم. هنالك واحد فقط عليه التكلم. إنه السيد تاب، باني المركب».

«إذن انتهى الأمر تقريباً».

«أتوقع ذلك، سيدتي. هل تودين سماع البقية؟ هنالك كرسي داخل الباب مباشرة. إن تسللتِ الآن لن يلاحظك أحد».

قلت: «نعم، نعم، أظن أنني أود ذلك».

Add to Basket

تبعت الشرطي، وتسللت وجلست بمحاذاة الباب تماماً. كانت الغرفة أصغر مما تخيلت، كما كان الحر شديداً. كان هنالك أشخاص لم أعرفهم، نظرت إليهم من زاوية عيني. قفز قلبي فجأة حين أدركت وجود السيدة دنفرز. وكان فافيل إلى جانبها. جاك فافيل، ابن عم ربيكا. لم أتوقع أن يكون هناك. تساءلت عما إذا كان مكسيم قد رآه. وكان جايمز تاب، باني المركب، واقفاً الآن يجيب على الأسئلة.

«هل كان المركب في حالة مناسبة للإبحار؟».

«كان بحالة جيدة عندما أصلحته في شهر نيسان من السنة الماضية. كان ذلك فصل السيدة دي ونتر الرابع مع المركب».

«هل كان يُعرف عن المركب أنه انقلب من قبل؟».

«كلا يا سيدي. لو حدث لسمعت عن ذلك بسرعة من السيدة دي ونتر. لكنها كانت فرحة بالمركب من كل النواحي، من خلال ما قالته لي».

«أفترض أن العناية الفائقة مطلوبة أثناء قيادة المركب؟».

«حسناً، يا سيدي، على كل إنسان أن يكون حذراً أثناء الإبحار بالمركب، فهذا صحيح. إلا أن هذا كان مركباً قوياً مناسباً للإبحار، وباستطاعته مقاومة الرياح القوية. والسيدة دي

Add to Basket

ونتر قد أبحرت فيه في طقس أسوأ من طقس تلك الليلة. إذ كانت الرياح تهب من حين لآخر. هذا ما قلته مباشرة، إذ لم أفهم كيف يغرق مركبها في ليلة كتلك».

«لكن بالتأكيد، لو هبطت السيدة دي ونتر إلى الأسفل لإحضار معطف، مثلما افترض، وريح إضافية كانت لتهب حول تلك الصخرة، فذلك يكون كافياً لقلب المركب؟».

هز جايمز تاب رأسه. «لا. لا أرى أنه يقلبه».

«حسناً، أخشى أنه لا بد أنه حدث. لا أعتقد أن السيد دي ونتر أو أياً منا يقترح أنك الملاك بأية وسيلة على الإطلاق. أنت أصلحت المركب في بداية الموسم، وأنت تقول إنه جيد وملائم للإبحار، وهذا كل ما أريد معرفته. يبدو أن السيدة دي ونتر كانت مهملة للحظة، ففقدت حياتها، وقد غرق المركب بكامله. لقد حدثت أمور كهذه قبلاً. أكرر، نحن لا نلقي اللوم عليك».

قال صانع المركب: «اعذرني يا سيدي، هنالك شيء أكثر من ذلك. ولو سمحت لي، أود الإدلاء بتصريح إضافي».

«حسن جداً. تابع».

Add to Basket

«إن المسألة كالآتي. بعد الحادث السنة الماضية، ادعى الكثير من الناس في كريث أنني تركت السيدة دي ونتر تنطلق في البحر في مركب رديء يسرّب المياه. فقدت بعض العمل من جراء ذلك. ولم يكن ذلك عادلاً، لكن المركب قد غرق، ولم يوجد شيء أدافع به عن نفسي. حسناً، ذهبت لألقي نظرة عليه البارحة. أردت اقناع نفسي أن العمل الذي قمت به كان جيداً».

حسناً، إن هذا لطبيعي جداً. آمل أنك مقتنع».

«أجل يا سيدي، لقد اقتنعت. فما من شيء خطأ في عملي، تفحصته كله. لقد غرق المركب عند قعر رملي. سألت الغاطس عن ذلك، فأخبرني بهذا. لم يمس الصخور التي كانت تبعد خمسة أقدام على الأقل. كان ملقياً على الرمل، ولم يكن أي أثر للصخور عليه».

توقف.

«حسناً؟ هل هذا كل ما تريد قوله؟».

«كلا. ليس كل ما أريد قوله. ما أريد معرفته هو التالي، من سبب الحفر في المركب؟ الصخور لم تسببها، فأقرب صخرة تبعد خمسة أقدام. علاوة على ذلك، لم تكن ذلك النوع من الحفر التي تسببها صخرة. لقد صنعت بواسطة آلة حادة على عمد».

Add to Basket

لم أنظر إليه، بل نظرت إلى الأرض. كان الجو حاراً ـ حاراً جداً. لِمَ لا يفتحون نافذة؟ تساءلت لِمَ لم يقل أحد شيئاً. لِمَ دام الصمت طويلاً هكذا؟

«ماذا تقصد؟ أية حفر؟» بدا الصوت بعيداً جداً.

«كان هنالك ثلاثة منها. وُجهت عبره بواسطة شيء حاد. أستطيع القول إنه بوجود تلك الحفر فيه، لن يستغرق مركب صغير كهذا وقتاً طويلاً كي يغرق. ليس عشر دقائق. لم تكن تلك الحفر موجودة عندما غادر المركب ساحتي. إن هذا هو رأيي يا سيدي، إن المركب لم ينقلب أبداً. لقد تم إغراقه عن قصد».

كان علي أن أحاول الخروج من الباب. إذ لم يكن هناك هواء في المكان.. كانوا يتحدثون. شخص ما أمامي كان واقفاً، فلم أستطع مشاهدة شيء. كان الحر شديداً، شديداً جداً. كان مكسيم واقفاً الآن. لم أستطع النظر إليه.

«سيد دي ونتر، لقد سمعت تصريحاً من جايمس تاب. هل لك أي علم عن تلك الثقوب في المركب؟».

«ليس على الإطلاق».

«سيد دي ونتر، أريد أن تصدق بأننا جميعاً نشعر معك بشأن ذلك. ما من شك أنك عانيت من صدمة، من صدمة هائلة،

Add to Basket

عندما علمت أن زوجتك السابقة وجدت في مركبها، وليس في البحر، مثلما افترضت. إنني أجري التحقيق في المسألة من أجلك. أريد، إكراماً لك، أن أكتشف تماماً كيف ولماذا ماتت. لقد قال جايمس تاب لتوه إن في المركب ثقوباً ثلاثة ثُقبت عبر قعره. هل تشك في هذا التصريح؟».

«بالطبع لا. فهو صانع مراكب وهو يعرف ما يقوله».

«من كان يعتني بمركب السيدة دي ونتر؟».
«كانت تعتني به بنفسها».
«ألم تستخدم أي رجل؟».
«ما من أحد على الإطلاق».
«وهل احتفظ بالمركب في المرفأ الخاص في مندرلي؟».
«نعم».

«وهل يمكن رؤية أي غريب حاول التدخل بالمركب؟. لا يوجد ممر عام يؤدي إلى المرفأ».

«لا».

«ومع ذلك أخبرنا جايمس تاب أن مركباً بهذه الثقوب المحدثة به لا يحتمل أن يطفو أكثر من عشر دقائق».

«نعم».

Add to Basket

«بحيث لا يمكن التدخل بالمركب قبل أن تخرجه السيدة دي ونتر، وإلا غرقت في المرفأ؟».

«من دون شك».

«لذا ينبغي أن نفترض أن من أخرج المركب في تلك الليلة أحدث الثقوب فيه؟».

«نعم».

«لقد سبق وأخبرتنا أن الباب كان مغلقاً، والنوافذ أيضاً، وأن بقايا زوجتك كانت على الأرض. هذا ما جاء في تصريحك وفي تصريح الدكتور فيليبس والكابتن سيرل».

«نعم».

«والآن يأتي تصريح أنه بآلة حادة أحدثت ثلاثة ثقوب في القعر. ألا يخطر ببالك أنه لأمر غريب جداً؟».

«بالتأكيد».

«ليس لديك أي اقتراح تتقدم به؟».

«ليس على الإطلاق».

«سيد دي ونتر، ربما هذا مؤلم، لكنه من واجبي أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً جداً. هل كانت العلاقات بينك وبين السيدة دي ونتر السابقة سعيدة تماماً؟».

Add to Basket

كان الجو حاراً، حاراً جداً، بوجود كل هؤلاء الناس. ما من نافذة مفتوحة. الباب أبعد مما ظننت، والأرض تعلو لتصل إلى طيلة الوقت. . .

وبعد ذلك جاء صوت مكسيم، واضحاً وقوياً: «هل من أحد يأخذ زوجتي إلى الخارج؟ إنها توشك على الإغماء».

Add to Basket

الفصل التاسع

استجواب آخر

عدت جالسة في الغرفة الصغيرة ثانية ـ الغرفة الشبيهة بغرفة الانتظار في محطة. كان الشرطي هناك ينحني فوقي مقدماً لي كوب ماء، ويد شخص ما على ذراعي، يد فرانك. جلست هادئة تماماً، واتضحت أمامي صورة الأرض والجدران وفرانك والشرطي.

قلت: «آسفة للشيء السخيف الذي ارتكبته. لقد كان الجو حاراً جداً في تلك الغرفة».

قال الشرطي: «إن الجو يصبح خالياً من الهواء هناك، وقد سبق أن شهدنا سيدات يغبن عن الوعي هناك من قبل».

قال فرانك: «هل تشعرين بتحسن، مسز دي ونتر؟».

«أجل، أجل. أفضل بكثير: سأكون على ما يرام الآن. لا تنتظر معي».

«سأعيدك إلى مندرلي».

Add to Basket

«كلا».

«بلى. لقد طلب مكسيم مني ذلك».

«أريد أن أنتظره».

«ربما استغرق مكسيم وقتاً طويلاً».

لماذا قال ذلك؟ ما الذي قصده؟ لماذا لم ينظر إلي؟ تناول يدي وسار معي هابطاً الدرجات إلى الشارع. ربما استغرق مكسيم وقتاً طويلاً...

لم نتحدث. انطلقنا نحو مندرلي.

«لماذا سيتأخرون؟ ماذا سيفعلون؟».

«ربما عليهم مراجعة الحقائق ثانية».

«لديهم كل الحقائق. وما من مزيد يمكن لأحد قوله».

«لا تدرين أبداً. لقد غير تاب الموضوع كله. ربما عليهم القيام بذلك بطريقة مختلفة».

«أية طريقة؟ ما الذي تقصده؟».

«سمعتِ ما قاله تاب عن المركب؟ لن يصدقوا أن الأمر هو حادث بعد الآن».

«كل ذلك خطأ، يا فرانك! لا ينبغي أن يصغوا إلى تاب.

Add to Basket

كيف له أن يعرف، بعد كل تلك الأشهر، كيف أُحدثت الثقوب في المركب؟ ما الذي يحاولون إثباته؟».

«لست أدري».

«سيتابعون التحقيق مع مكسيم، يجعلونه يفقد صوابه، يجعلونه يقول أشياء لا يقصدها. سيطرحون سؤالاً إثر سؤال، فرانك، إن مكسيم لن يتحمل ذلك. أعرف أنه لن يتحمله!».

لم يُجب فرانك. كان يقود بسرعة. وقد دلّ هذا على قلقه، قلقه الشديد.

«ذاك الرجل كان هناك ـ ذاك الرجل الذي أتى إلى مندرلي لرؤية السيدة دنفرز».

«أتعنين فافيل؟ أجل، لقد رأيته».

«كان جالساً هناك مع السيدة دنفرز».

«أعرف».

«لماذا كان هناك؟ بأي حق يذهب؟».

«كان ابن عمها؟».

«ليس مناسباً أن يجلس هو والسيدة دنفرز هناك يستمعان، أنا لا أثق بهما يا فرانك».

«كلا».

«ربما فعلا شيئاً، ربما تسببا بالمتاعب».

Add to Basket

لم يجب فرانك مرة أخرى. أدركت أنه مخلص جداً لمكسيم كي يُستدرج إلى نقاش، حتى معي. لم يكن يعرف كم كنت أعرف. كنا صديقين، سافرنا الطريق ذاته، ولكننا لم نجرؤ على النظر إلى بعضنا. وما من أحد منا تجرأ أن يخاطر ويعترف.

تمددت على سريري في غرفتي. ربما سيستجوبون فرانك أيضاً ـ يسألونه عن تلك الأمسية، منذ أكثر من اثني عشر شهراً، عندما تناول مكسيم العشاء في منزله. عن الوقت المحدد الذي غادر فيه مكسيم. عما إذا رأى أحد ما مكسيم عند عودته إلى مندرلي. عما إذا كان باستطاعة أحد أن يثبت أن مكسيم ذهب مباشرة إلى السرير. ربما استدعيت السيدة دنفرز. ربما تم استجوابها. وقد يبدأ مكسيم بفقدان صوابه ويصبح لونه شاحباً...

لا بد أنني استغرقت في النوم، لأنني استيقظت فجأة لدى أول دويٍّ للرعد. استويت في جلستي وكانت الساعة تشير إلى الخامسة. لم يكن هنالك أية رياح تهب، وقد لبثت الأوراق بلا حراك تنتظر. وكانت السماء رمادية. ثم أتى المزيد من الرعد في المدى البعيد. ولم تهطل الأمطار. نزلت إلى المكتبة، وعند الخامسة والنصف دخل روبرت.

«لقد وصلت السيارة لتوها إلى الباب يا سيدتي».

Add to Basket

«أية سيارة؟».

«سيارة السيد دي ونتر، يا سيدتي».

«هل يقودها السيد دي ونتر بنفسه؟».

«أجل يا سيدتي».

حاولت النهوض، لكن قدماي بدتا وكأنهما من قش؛ لم تكونا لتحملاني. وقفت متكئة على كرسي. كان حلقي جافاً جداً. وبعد لحظة دخل مكسيم ووقف داخل الباب تماماً.

بدا متعباً وعجوزاً. وكانت هناك خطوط على زوايا فمه لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. قال:

«لقد انتهى الأمر».

انتظرت. ما زلت غير قادرة على الكلام أو الحراك باتجاهه.

«لقد قتلت نفسها... كانوا جميعاً في ظلمة من الأمر، طبعاً. لم يعرفوا ماذا يفعلون؟».

قتلت نفسها؟» جلست على كرسي. «لكن لماذا؟».

«الله يعلم! لم يبدو أنهم اعتقدوا من الضروري تقرير ذلك. لقد جاء هوريدج العجوز إلي - يريد أن يعرف ما إذا كانت لدى ربيكا أية مشاكل مالية. مشاكل مالية!».

ذهب ووقف بالقرب من النافذة ينظر إلى العشب الأخضر. «إنها ستمطر. شكراً لله، ستمطر أخيراً».

Add to Basket

«ماذا حدث؟ ماذا قال هوريدج؟ لماذا بقيت هنالك طيلة هذا الوقت؟».

قال مكسيم: «لقد كرر المسألة عدة مرات. تفاصيل دقيقة عن المركب الذي لم يكترث به أحد. ظننت أنني سأجن. لكنني حافظت على هدوئي. رؤيتي لك عند الباب ذكرتني بما ينبغي فعله. لو لم تنهاري هكذا لما فعلته أبداً. لقد أعادني إلى رشدي بصدمة. أدركت تماماً ما ينبغي أن أقول ـ لم أبعد عيني عن هوريدج العجوز أبداً. وسأظل أذكر وجهه حتى يوم موتي. إنني متعب يا عزيزتي؛ متعب بحيث لا أستطيع أن أرى أو أسمع أو أشعر شيئاً». جلس، ورأسه في يديه. ذهبت وجلست بجانبه.

قلت: «أين فرانك؟».

«عليه الذهاب إلى المقبرة. أنا أيضاً كنت لأذهب، لكنني أردت المجيء مباشرة إليكِ. لبثت أفكر فيكِ وأنتِ تنتظرين بمفردك، من دون أن تعرفي ماذا سيحدث».

«لماذا الذهاب إلى المقبرة؟».
«يجب أن نقوم بشيء هناك هذا المساء».

إذن فهمت. إنهم سيدفنون ريبكا.

«لقد تحدد ذلك عند السادسة والنصف. لن يكون أحد في

Add to Basket

الجوار. لقد تم ترتيب الأمر يوم أمس. التحقيق لن يحدث أي فرق».

بدا متعباً، متعباً على نحو مميت.

قلت: «أود لو لم يكن عليك الخروج ثانية».

«لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً».

«سآتي معك. لن أبالي. دعني آتي معك».

«كلا. لا أريدك أن تذهبي معي».

بعد ذلك تركني، وسمعت صوت السيارة يتلاشى.

بعد الساعة السابعة تماماً بدأ المطر ينهمر، على نحو خفيف أولاً، خفيف جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أراه. وبعد ذلك بصوت أعلى وبسرعة أكبر. تركت النوافذ مفتوحة على مصراعيها، ووقفت أمامها وتنشقت الهواء البارد النقي. تساقط المطر على وجهي وعلى يدي. هطل كثيفاً ومتلاحقاً لدرجة أنني لم أستطع حتى أن أرى الأشجار.

لم أسمع فريث يدخل عند الباب.

«اعذريني يا سيدتي، لكن هل تعلمين ما إذا كان السيد دي ونتر سيتأخر؟».

«لا، ليس كثيراً».

«هناك سيد يود رؤيته يا سيدتي». توقف ثم قال: «لست متأكداً ما ينبغي أن أقول. إنه مصمم على رؤية السيد دي ونتر».

Add to Basket

«من هو؟ أي أحد تعرفه؟».

بدا فريث قلقاً. «نعم يا سيدتي. إنه سيد اعتاد المجيء إلى هنا مراراً في وقت ما. إنه السيد فافيل».

التفت وأغلقت النافذة، إذ كان المطر يدخل. ثم نظرت إلى فريث وقلت: «أعتقد أن ربما من الأفضل أن أرى السيد فافيل».

«حسن جداً سيدتي».

ذهبت ووقفت أمام الموقد الفارغ. كان من الممكن أن أستطيع التخلص من فافيل قبل أن يعود مكسيم. لم أعرف ما سأقول له، لكنني لم أكن خائفة.

في غضون لحظات قليلة أدخله فريث. بدا غير مرتب. عيناه حمراوان. تساءلت عما إذا كان يشرب.

قلت: «أخشى أن مكسيم ليس هنا. لست أدري متى سيعود. أليس من الأفضل لو رأيته في المكتب في الصباح؟».

قال فافيل: «الانتظار لا يقلقني، ولا أظن أنني سأنتظر طويلاً جداً. لقد ألقيت نظرة على غرفة الطعام وأنا أمر، ورأيت أنه يُتوقع حضور ماكس إلى العشاء».

Add to Basket

«لقد تغيرت خططنا؛ من الممكن أن لا يعود مكسيم على الإطلاق هذا المساء».

«لقد فر، أليس كذلك؟» قال فافيل وهو يرسم نصف ابتسامة لم تعجبني. «أتساءل ما إذا كنتِ تعنين ذلك! أخبريني، هل تشعرين بتحسن؟ من السيء جداً أن تنهاري هكذا بعد ظهر هذا اليوم. كنت لآتي وأساعدك، لكنني وجدت أن لديك منقذاً غيري. أراهن أن فرانك كراولي متع نفسه. هل سمحتِ له أن يعيدك إلى البيت؟ لم تسمحي لي بأن أنقلكِ خمس بوصات عندما عرضت ذلك عليكِ!».

«لماذا تريد أن ترى مكسيم؟».

«لقد كبرتِ قليلاً منذ أن رأيتكِ أخيراً. أليس كذلك؟ أتساءل ماذا كنتِ تفعلين؟ لا أعتقد أنني سأبالي كثيراً إن لم يعد ماكس إلى العشاء! ما رأيك؟».

قلت: «سيد فافيل، لا أريد أن أكون فظة، لكنني متعبة جداً ـ لقد كان يومي طويلاً. إن لم تستطع أن تخبرني لماذا تريد أن ترى مكسيم، فلن يكون ملائماً بقاؤك هنا. من الأفضل لك أن تفعل كما اقترحت، وأن تذهب إلى المكتب في الصباح».

«لا، لا، لا. لا تهربي وتتركيني! إنني غير مؤذٍ، حقاً أنا كذلك. وأعتقد أنكِ تتصرفين إزاء ذلك على نحو رائع، على

Add to Basket

نحو رائع حقاً. إنني أخلع قبعتي من أجلك ـ أنا أفعل حقاً».
كان كلامه ثقيلاً جداً. تمنيت لو أنني لم أخبر فريث أنني سأراه.

«تأتين إلى مندرلي»، قال وهو يلوح بذراعه بشراسة، «تستولين على كل هذا المكان، تلتقين مئات من الناس لم يسبق لكِ أن رأيتهم أبداً من قبل، تتحملين ماكس العجوز وطباعه، لا تستسلمين لأحد، بل تسيرين على طريقتكِ. أدعو ذلك جهداً جيداً، ولا أكترث بمن يسمعني أقول ذلك. جهد جيد». ثبت نفسه إلى الطاولة وتابع يقول: «إن هذا العمل كان بمثابة صدمة لي، أتعلمين. صدمة فظيعة. ربيكا كانت ابنة عمي وكنت مولعاً جداً بها. وكنا دائماً صديقين عظيمين. أحبت الأشياء ذاتها والأشخاص ذاتهم. ضحكت على النكات ذاتها. أعتقد أنني كنت مولعاً بربيكا أكثر من أي شخص آخر في العالم. وكانت بدورها مولعة بي. كل هذا كان صدمة فظيعة».

قلت: «أجل. آسفة جداً من أجلك».

«وما الذي سيفعله ماكس من أجل ذلك؟ هذا ما أود معرفته. هل يعتقد أنه يستطيع الجلوس بهدوء لأن التحقيق قد انتهى؟ أخبريني بذلك». لم يعد مبتسماً. انحنى أمامي. «أنا في طريقي لرؤية ما ستفعله العدالة من أجل ربيكا. قتلت نفسها!» مال

Add to Basket

نحوي أكثر. «أنتِ وأنا نعرف أنها لم تفعل، أليس كذلك؟». ظل منحنياً نحوي أكثر وقال ببطء: «أليس كذلك؟».

فتح الباب ودخل مكسيم الغرفة يتبعه فرانك. وقف مكسيم من دون حراك والباب مفتوح وقال: «ماذا بحق الشيطان تفعل هنا؟».

التفت فافيل ويداه في جيبيه. ثم بدأ يبتسم. «في الواقع، يا ماكس، أيها الرجل العجوز، جئت لأهنئك على نتيجة التحقيق بعد ظهر اليوم».

قال مكسيم: «هل تسمح أن تغادر المنزل أو نلقي بك أنا وكراولي إلى الخارج».

قال فافيل: «مهلاً لحظة، مهلاً لحظة!» ثم جلس على الأريكة. «لا تريد أن يسمع فريث ما سأقوله، صحيح؟ حسناً، سيفعل إن لم تغلق الباب».

لم يتحرك مكسيم. رأيت فرانك يغلق الباب بهدوء بالغ.

قال فافيل: «الآن اسمع هنا. لقد خرجت من هذه المسألة على نحو جيد، أليس كذلك؟ أوه، بلى. لقد كنت في التحقيق بعد ظهر هذا اليوم. كنت هنالك من البداية حتى النهاية ـ رأيت

Add to Basket

زوجتك تنهار في لحظة حرجة نوعاً ما، وأنا لا ألومها. كانت بمثابة مخاطرة بالنسبة لك آنذاك يا ماكس، أليس كذلك؟ ومن حسن حظك أن الأمور جرت مثلما فعلت. أنت تدرك، أليس كذلك، يا ماكس، أيها الرجل العجوز، انني أستطيع أن أجعل الأمور سيئة للغاية لك لو اخترت. ليس فقط سيئة، بل - هل لي أن أقول - خطرة؟».

لبث مكسيم جامداً. لم يبعد عينيه عن فافيل، ثم قال:

«صحيح؟ بأية طريقة تستطيع أن تجعل الأمور خطرة؟».

«انظر هنا، ماكس، أنت تعرف كل شيء عن ربيكا وعني. كنا عاشقين، ألم نكن كذلك؟ لم أنكر هذا أبداً. حسن جداً إذن. حتى الآن، اعتقدت، مثل أي أحمق آخر، أن ربيكا غرقت وهي تبحر في الخليج، وأن جسدها انتشل في ادجكومب بعد ذلك بأسابيع». توقف ثم جلس ينظر إلى كل منا بدوره.

«بعد ذلك التقطت صحيفة المساء منذ أيام قليلة وقرأت أنه تم العثور على مركب ربيكا وأن هنالك جسداً في المقصورة. لم أفهم الأمر. من يمكن أن يكون رفيق ربيكا في الإبحار؟ لم يكن لذلك تفسير. جئت إلى هنا وأقمت في فندق. اتصلت بالسيدة دنفرز. أخبرتني أن الجسد هو جسد ربيكا. بالرغم من ذلك، ظننت،

Add to Basket

مثل كل واحد سواي، أن التفسير الأول خاطىء، وأن ربيكا بشكل من الأشكال علقت في المقصورة عندما نزلت لإحضار معطف. حسناً، ذهبت إلى التحقيق اليوم كما تعرف. وسار كل شيء بشكل جيد إلى أن أدلى تاب بشهادته؟ لكن بعد ذلك؟ حسناً يا ماكس العجوز، ماذا لديك تقوله عن تلك الحفر المحدثة في قعر المركب؟».

قال ماكس ببطء: «هل تعتقد أن بعد كل تلك الساعات في الحديث بعد ظهر هذا اليوم أنني سأغوص في الأمر مجدداً ـ معك؟ لقد سمعت التحقيق. لا بد أن يقنعك ذلك».

«قتلت نفسها، ايه؟ ربيكا قتلت نفسها؟ إنها تقترف مثل هذا الشيء، أليس كذلك؟ اسمع؛ لم تكن تعلم أن لدي هذه الملحوظة، هل كنت تعلم؟ احتفظت بها لأنها آخر شيء كتبته لي. سأقرأها لك. أظن أنها تهمك».

تناول قطعة ورق من جيبه وقرأ: «حاولت أن أتصل بك من الشقة، لكنني لم أستطع الحصول على رد. أنا ذاهبة إلى مندرلي فوراً. سأكون في الكوخ هذا المساء، وإن حصلت على هذه في الوقت المناسب، هلا أخذت السيارة وتبعتني؟ سأمضي الليلة في الكوخ وأترك الباب مفتوحاً لك. لدي ما أقوله لك وأريد أن

Add to Basket

أراك في أقرب ما يمكن. ربيكا». أعاد الملحوظة إلى جيبه، ثم قال: «إنها ليست بالملحوظة التي تكتبها عندما تنوي الانتحار، أليس كذلك؟ كانت تنتظرني في شقتي، عندما عدت في حوالي الرابعة صباحاً. لم تكن لدي أية فكرة أن ربيكا ستكون في لندن ذلك النهار، وإلا كنت اتصلت بها. وبما أن الأمر كذلك، كنت في حفلة تلك الليلة. عندما قرأت الملحوظة عند الرابعة صباحاً قررت أن الوقت متأخر جداً لأبدأ قيادة ست ساعات إلى منډرلي. ذهبت إلى السرير وقد عزمت الاتصال فيها بعد في النهار. وقد فعلت. وعلمت أن ربيكا قد غرقت!».

جلس هنالك ينظر إلى مكسيم.

«لنفترض أنني أظهرت هذه الملحوظة في التحقيق بعد ظهر هذا اليوم، لكان الأمر مربكاً لك، أليس كذلك يا ماكس العجوز؟».

«حسناً، لماذا لم تفعل؟».

«مهلاً أيها الفتى العجوز. لا حاجة إلى القلق! لم تكن أبداً صديقاً لي، لكنني لا آبه لذلك. إن كل الرجال الذين لديهم زوجات جميلات يشعرون بالغيرة، أليس كذلك؟ أنا لا ألومهم. الآن يا ماكس أضع أوراقي كلها على الطاولة. لماذا لا نتوصل إلى اتفاقية ما؟ لست بالرجل الثري ـ وأنا مولع جداً بالمخاطرة في سبيل ذلك. إلا أن ما يقلقني هو عدم امتلاكي لأي رأس مال

Add to Basket

أرتكز عليه. الآن، إذا توصلنا إلى اتفاقية تتضمن ألفين أو ثلاثة آلاف في السنة مدى الحياة، أستطيع الاستمرار على نحو مريح. وأنا لن أتعبك ثانية. أقسم بأنني لن أفعل».

قال مكسيم: «لقد طلبت منك من قبل أن تغادر المنزل. لن أسألك هذا ثانية. ها هو الباب ـ خلفك. تستطيع أن تفتحه بنفسك».

قال فرانك: «نصف دقيقة، يا مكسيم. ليس الأمر بهذه السهولة». ثم التفت إلى فافيل وقال: «أفهم ما ترمي إليه. لقد صدف، لسوء الحظ، أنك تستطيع تعقيد الأمور وجعلها صعبة بالنسبة إلى مكسيم، لا أظن أنه يرى الأمر واضحاً مثلما أراه. ما هو المبلغ بالتحديد الذي تقترح أن على مكسيم الاتفاق عليه؟».

رأيت مكسيم يغدو شاحباً، ثم قال: «لا تتدخل بهذا يا فرانك إنها مشكلتي أنا فقط. لن أسمح بأي تهديد. تعتقد أنك تستطيع إخافتي، أليس كذلك يا فافيل؟ حسناً، إنك مخطىء. لست خائفاً من أي شيء تفعله، هل أتصل بالكولونيل جوليان وأطلب منه الحضور إلى هنا؟ إنه قاضي الأمن، وسيكون مهتماً بروايتك».

نظر فافيل بقساوة إليه، ثم ضحك وقال:

«محاولة جيدة، لكنها لن تفيد. لن تجرؤ على الاتصال بجوليان العجوز، لدي ما يكفي لشنقك يا ماكس العجوز».

Add to Basket

سار مكسيم ببطء عبر المكتبة، وإلى داخل الغرفة الصغيرة في الخلف. قلت لفرانك: «أوقفه! أوقفه إكراماً لله!».

ذهب فرانك بسرعة، ثم سمعت صوت مكسيم، بارداً جداً وهادئاً جداً. كان يقول: «أريد كريث ١٧». أخذ فافيل يراقب الباب. ثم سمعت مكسيم يقول لفرانك: «اتركني وشأني» ثم - «هل هذا الكولونيل جوليان؟ دي ونتر هنا. نعم - نعم، أعرف. أتساءل عما إذا كان بالإمكان الحضور إلى مندرلي في الحال؟ إن الأمر عاجل. لا يسعني شرح السبب على الهاتف، لكنك ستسمع بكل شيء عندما تأتي. آسف لأن علي إخراجك. أجل. شكراً جزيلاً لك، وداعاً».

عاد ثانية إلى الغرفة وقال: «إن جوليان قادم حالاً». ذهب وفتح النوافذ. كان المطر ما يزال ينهمر بغزارة. وقف هناك موجهاً ظهره لنا، يتنشق الهواء البارد. لم يقل أحد منا شيئاً. لم يكن هناك أي صوت سوى هطول المطر. شعرت بالضعف. لم يكن هناك ما أفعله. كان علي الجلوس هناك، أراقب المطر.

كان المطر غزيراً جداً بحيث كان من الصعب سماع السيارة. لم ندرك أن الكولونيل جوليان قد وصل إلى أن فُتح الباب ليدخله فريث إلى الغرفة.

Add to Basket

قال مكسيم: «أعتقد أنك تدرك أنني لم أخرجك في أمسية كهذه من أجل لا شيء. هذا هو جاك فافيل، ابن عم زوجتي السابقة. هيا، يا فافيل».

نهض فافيل، وقد بدا أن الانتظار القليل قد هدّأه. لم يعد يبتسم. ساورني الشعور بأنه لم يُسر للطريقة التي جرت فيها الأمور، كما أنه لم يكن جاهزاً للقاء الكولونيل جوليان. بدأ يتكلم بصوت مرتفع وقبيح. «انظر هنا يا كولونيل جوليان، سأتطرق إلى الموضوع مباشرة. إن سبب وجودي هنا هو أنني لم أقتنع بنتيجة التحقيق بعد الظهر».

قال الكولونيل جوليان: «أوه؟ ألا ينبغي أن يقول ذلك السيد دي ونتر؟».

«لا، لا أعتقد ذلك. لدي الحق في الكلام، ليس فقط كابن عم ربيكا، لكن بوصفي الرجل الذي كانت لتتزوجه لو بقيت على قيد الحياة».

بدا الكولونيل جوليان مستغرباً جداً وقال: «أوه، فهمت. فهمت. هل هذا صحيح، دي ونتر؟».

قال مكسيم: «هذه أول مرة أسمع بذلك».

تطلع الكولونيل جوليان إلى كل منهما بارتياب، ثم قال: «انظر هنا يا فافيل. ما هي مشكلتك بالضبط؟».

Add to Basket

حدق فافيل إليه للحظة. استطعت أن أتبين أنه يخطط شيئاً في ذهنه، كان عليه الشرب كي يصبح قادراً على تنفيذه. وضع يده في جيبه وأخرج رسالة ريبكا. «هذه الملحوظة كتبت قبل ساعات قليلة من شروعها في قتل نفسها في البحر مثلما افترض، ها هي. إقرأها، وقل عما إذا كنت تظن أن امرأة كتبت ذلك قد عقدت العزم على الانتحار».

قرأ الكولونيل جوليان الملحوظة، ثم أعادها وقال: «لا، في ظاهرها، لا. لكنني لا أدري إلى ماذا ترمز الملحوظة. ربما أنت تعرف ـ أو ربما دي ونتر؟».

لم يقل مكسيم شيئاً.

«لقد حددت ابنة عمي موعداً في تلك الملحوظة، ألم تفعل؟ طلبت مني بوضوح أن أذهب إلى مندرلي في تلك الليلة لأن لديها ما تخبرني به. حددت الموعد، وقد كانت ستمضي الليلة في الكوخ على عمد كي تراني بمفردي. إن حقيقة ذهابها للإبحار لم تفاجئني، فهذا ما فعلته بعد يوم طويل في لندن. لكن أن تحدث ثقوباً في أرض المركب وتغرق نفسها ـ أوه لا، يا كولونيل جوليان. بحق الله لا»! احتقن وجهه وهتف بالكلمات الأخيرة.

استطعت أن أتبين أن الكولونيل جوليان لم يحب فافيل.

Add to Basket

«يا صديقي العزيز، ليست هنالك أدنى فائدة من فقدان صوابك معي. تقول انك ترفض أن تصدق أن ابنة عمك قتلت نفسها. لكنك سمعت ما قاله باني المركب. الثقوب كانت هناك. لنفترض اننا تطرقنا إلى الموضوع مباشرة. ما الذي تقترح أنه سيحدث حقاً؟».

لفت فافيل رأسه ونظر بثبات نحو مكسيم. كان يدير الملحوظة بين أصابعه. «ربيكا لم تحدث تلك الثقوب أبداً. إنها لم تقتل نفسها أبداً. لقد اغتيلت ربيكا. وإن أردت أن تعرف من هو القاتل، ها هو يقف أمام النافذة هناك! لم يقو حتى على الانتظار، هل استطاع، حتى تنتهي السنة قبل أن يتزوج أول فتاة يضع عليها عينيه. ها هو القاتل لديك، السيد ماكسيمليان دي ونتر. انظر جيداً إليه. سيبدو جيداً وهو مشنوق، أليس كذلك؟».

بدأ فافيل يضحك ضحكة رجل كان يشرب، بصوت عالٍ وأحمق، وهو يدير ملحوظة ربيكا بأصابعه طيلة الوقت.

حمداً لله على ضحكة فافيل. حمداً لله على إصبعه الذي يشير به، ووجهه الأحمر، وعينيه الشاذتين. حمداً لله على الطريقة التي وقف فيها هنالك، يهتز ببطء على قدميه. لقد وضع ذلك الكولونيل جوليان إلى جانبنا، فقال بهدوء:

Add to Basket

«إن الرجل ثمل. إنه لا يدري ما الذي يقوله».

هتف فافيل: «كنت أشرب؟ أليس كذلك؟ أوه لا، يا صديقي العزيز. ربما كنت قاضي أمن وكولونيل في الصفقة، لكن هذا لا يعني شيئاً لي. فالقانون إلى جانبي، وسأستخدمه من أجل التغيير. هنالك قضاة أمن إضافة إليك. أشخاص ذوو عقول في رؤوسهم. لقد اغتال ماكس دي ونتر ربيكا، وسأثبت ذلك».

«انتظر لحظة يا سيد فافيل»، قال الكولونيل جوليان بهدوء، «لقد كنت موجوداً في التحقيق بعد الظهر. إن فكرت بعمق بشأن ذلك، لماذا لم تبرز تلك الرسالة في المحكمة؟».

تطلع فافيل بقسوة إليه ثم ضحك، «لأنني لم أختر ذلك، هذا هو السبب. فضلت أن آتي وأعالج المسألة مع السيد دي ونتر شخصياً».

قال مكسيم وهو يتقدم من أمام النافذة: «لهذا طلبت منك المجيء إلى هنا. سألته نفس السؤال. قال إنه ليس بالرجل الثري، وإنني لو اهتميت بالاتفاق على ألفين أو ثلاثة آلاف في السنة أمده بها مدى الحياة لن يقلقني ثانية. لقد كان فرانك هنا، وزوجتي أيضاً، وقد سمعه كلاهما. إسألهما».

Add to Basket

قال فرانك: «هذا صحيح تماماً يا سيدي».

«بل»، قال الكولونيل جوليان: «المشكلة هي أن هذا النوع من القضايا ليس سهلاً أبداً. الآن يا سيد فافيل، لقد وجهت تُهمة خطيرة ضد السيد دي ونتر. هل لديك أي إثبات؟».

«إثبات؟» قال فافيل. «ماذا بحق الشيطان تريد من الإثبات؟ أليست تلك الحفر في المركب إثباتاً كافياً؟».

«بالطبع لا، إلا إذا جئت بشاهد رآه يحدثها. أين هو شاهدك؟».

«شاهد...! من سواه يمكن أن يقتل ربيكا؟ أنا أخبرك بأن دي ونتر قتل ربيكا بسببي. كان يعلم أنني عشيقها؛ وكان غيوراً على نحو جنوني. كان يعلم أنها تنتظرني في الكوخ في الخليج، وقد نزل تلك الليلة وقتلها. ثم وضع جسدها في المركب وأغرقها».

«إنها لرواية ذكية، يا فافيل، مثلما هي، لكن ليس لديك أي دليل. أحضر شاهداً رأى ذلك يحدث، وأنا ربما أخذتك على محمل الجد».

قال فافيل: «مهلاً لحظة. مهلاً لحظة... هنالك فرصة كبيرة من أن السيد دي ونتر شوهد تلك الليلة...».

Add to Basket

فجأة أدركت ما عناه فافيل. وبومضة خوف أدركت أنه على حق، جمل صغيرة راودتني. «إنها في الأسفل، أليست كذلك؟». «إنها لن تعود مجدداً». «لم أخبر أحداً». «سوف يجدونها هنالك، أليس كذلك؟» الأسماك أكلتها، ألم تفعل؟» «لن تعود أبداً». لقد رآه بن! بن بعقله الفقير الأبله، كان شاهداً طيلة الوقت.

«هنالك رجل في المنطقة يقضي وقته على الشاطىء. وكان غالباً في الجوار عندما نزلت هنالك مع ربيكا. لقد اعتاد أن ينام في الغابات عندما يكون الطقس حاراً. الرجل أبله، ولن يتقدم بمفرده. لكنني أستطيع أن أحمله على الكلام لو رأى أي شيء في تلك الليلة، وهنالك فرصة كبيرة، من أنه فعل».

«لا بد أنه يعني بن»، قال فرانك وهو يلقي نظرة سريعة إلى مكسيم. «إنه ابن أحد رجالنا. لكنه غير مسؤول عما يقول أو يفعل. إنه غير طبيعي».

قال فافيل: «وماذا يهم ذلك بحق الشيطان؟ لديه عينان، أليس كذلك؟ إنه يعرف ما يرى. ليس عليه سوى الإجابة بنعم أو لا».

سأل الكولونيل جوليان: «هل يمكنك القبض على هذا الرجل واستجوابه؟».

Add to Basket

«طبعاً. انطلق إلى كوخ أمه يا فرانك وأحضره. نريد أن ننهي هذه المسألة، أليس كذلك؟».

عندما فتح الباب، دخل فرانك. ثم التفت وتحدث إلى شخص ما في القاعة خارجاً.

قال بهدوء: «حسناً يا بن. ليس هنالك ما ينبغي الخوف منه».

دخل بن الغرفة بارتباك. بدا غريباً من دون قبعته. أدركت لأول مرة أن رأسه حليق تماماً. بدا أن الضوء يزعجه. أخذ يتطلع ببلاهة إلى الغرفة.

ثم سار فافيل تجاهه وقال: «مرحباً، كيف حالك بعدما التقينا آخر مرة؟».

نظر بن إليه، من دون أن يعطي أية إشارة تدل على أنه تعرف إليه، فلم يرد بأي جواب.

قال فافيل: «حسناً، تعرف من أنا، ألا تعرف؟».

«إيه؟».

«تعرف من أنا، ألا تعرف؟».

سار الكولونيل جوليان إليه وقال: «ستذهب إلى البيت في خلال دقائق قليلة يا بن. ما من أحد سيؤذيك. نريدك فقط أن

Add to Basket

تجيب على سؤال أو سؤالين. أنت تعرف السيد فافيل، أليس كذلك؟».

هز بن رأسه هذه المرة وقال: «لم أره أبداً».

«لا تكن أحمق؛ أنت تعرف أنك رأيتني! رأيتني أذهب إلى الكوخ عند الشاطىء. أليس كذلك؟».

قال بن: «لا. لم أر أحداً».

قال الكولونيل جوليان: «يا له من شاهد مفيد!».

دار فافيل حوله وقال: «أحد ما استهدف هذا الأحمق ودفع له كي يقول لا. أخبرك أنه رآني عشرات المرات».

قال بن: «لم أره أبداً». ثم أمسك بذراع فرانك وقال: «هل جاء ليأخذني إلى السجن؟ لا أريد الذهاب إلى السجن. إنهم قساة القلب مع الناس هناك. أريد البقاء في البيت. لم أفعل شيئاً».

قال الكولونيل جوليان: «هذا صحيح يا بن. لن يضعك أحد في السجن. الآن، هل تذكر السيدة التي كانت تملك المركب؟». «لقد رحلت».

«أجل، تعرف ذلك. لقد اعتادت أن تبحر بالمركب، أليس

Add to Basket

كذلك؟ هل كنت على الشاطىء عندما أبحرت فيه آخر مرة؟ ـ عندما لم تعد؟».

«إيه؟».

قال فافيل: «لقد كنت هنالك، أليس كذلك؟ رأيت السيدة دي ونتر تهبط إلى الكوخ، وفيما بعد رأيت السيد دي ونتر أيضاً. دخل الكوخ بعدها. ما الذي حدث بعد ذلك؟ تابع. ما الذي حدث؟».

تراجع بن إلى الحائط وبدأ يصيح: «لم أر شيئاً. أريد البقاء في البيت. لن أذهب إلى السجن. لم أرك من قبل. أبداً من قبل».

قال الكولونيل جوليان: «لا يبدو أن شاهدك قد ساعدك».

صاح فافيل: «لقد دُفع له، أنا أقول لك. دُفع له كي يسرد سلسلة أكاذيبه».

أخرج فرانك بن من الغرفة، وقال الكولونيل جوليان لمكسيم: «بدا المخلوق خائفاً. لقد كنت أراقبه. لم يُعامل معاملة سيئة، أليس كذلك؟».

قال مكسيم: «لا. إنه غير مؤذٍ على الإطلاق. لطالما تركته يفعل ما يحلو له».

قال الكولونيل جوليان: «لقد تمت إخافته أحياناً. كان يبرز

Add to Basket

بياض عينيه ـ تماماً مثلما يفعل الكلب عندما تهم على ضربه».

قال فافيل: «حسناً، لماذا لم تفعل؟ لربما تذكرني جيداً لو ضربته».

قال الكولونيل جوليان: «لم يساعدك، أليس هذا صحيحاً؟ تقول إنك كنت تنوي الزواج من السيدة دي ونتر، وإنك اعتدت على مقابلتها سراً في الكوخ. ليس بوسعك حتى أن تثبت تلك الرواية، أتستطيع ذلك؟».

قال فافيل وقد رأيته يبتسم: «لا أستطيع؟». عبر إلى الموقد وقرع الجرس.

أدركت ما الذي سيحدث. إذ أجاب فريث الجرس وقال فافيل: «أطلب من السيدة دنفرز الحضور إلى هنا». ثم التفت إلى الكولونيل جوليان، «كانت السيدة دنفرز صديقة ربيكا الحميمة. لقد كانت معها لسنوات قبل أن تتزوج. وستجدها شاهداً مختلفاً تماماً عن بن».

نظر فرانك بسرعة إلى مكسيم، فرأى الكولونيل هذه النظرة وشد شفتيه. فلم يعجبني ذلك.

انتظرنا جميعنا نراقب الباب. دخلت السيدة دنفرز الغرفة ووقفت بجانب الباب، يداها مطويتان أمامها، تنظر إلينا الواحد بعد الآخر.

Add to Basket

قال الكولونيل جوليان: «قبل أي شيء يا سيدة دنفرز، أريد أن أطرح عليكِ سؤالاً. هل كنتِ على علم بالعلاقة بين السيدة دي ونتر السابقة والسيد فافيل هنا؟».

قالت مسز دنفرز: «كانا أبناء عم».
«أعني شيئاً أقرب من ذلك».
«أخشى أنني لا أفهم يا سيدي».

قال فافيل: أوه، هذا سخيف يا داني! أنتِ تدركين ماذا يقصد. أنت تعلمين أن ربيكا وأنا عشنا معاً على نحو متقطع لسنوات، أليس هذا صحيحاً؟ كانت واقعة في حبي، أليس كذلك؟».

نظرت إليه السيدة دنفرز للحظة وقالت: «لم تكن كذلك».
«اصغي إلي أيتها العجوز...» بدأ فافيل، لكن السيدة دنفرز قاطعته بسرعة. «لم تكن واقعة في حبك أو في حب السيد دي ونتر. لم تكن تحب أي أحد. كانت تكره الرجال. كانت فوق كل ذلك».

قال فافيل بغضب: «الآن اسمعي. ألم تأتي عبر الغابات لمقابلتي ليلة بعد ليلة؟ ألم تنتظري فوق من أجلها؟ ألم تمضي نهايات الأسبوع معي في لندن؟».

«حسناً، قالت السيدة دنفرز بغضب مفاجيء: «وماذا لو هي فعلت؟ لديها الحق في تسلية نفسها، أليس كذلك؟ لقد أخبرتني

Add to Basket

بهذا. ضحكت عليك مثلما ضحكت على كل الباقين. لقد عهدتها تعود وتجلس في الطابق العلوي في السرير وتهتز ضحكاً عليكم جميعاً».

كان هناك شيء رهيب في تدفق الكلمات المفاجىء، شيء رهيب وغير منتظر جعلني أشعر بالغثيان، مع أنني كنت أعرف. أصبح مكسيم شاحباً، وتطلع فافيل إليها ببلاهة وكأنه لم يفهم. لم يكن هنالك سوى صوت انهمار المطر. وبعد ذلك تكلم جوليان بهدوء وبطء.

«سيدة دنفرز، هل يمكنك التفكير بأي سبب يدعو السيدة دي ونتر إلى التخلص من حياتها؟».

قالت وهي تهز رأسها: «لا، لا».

«ها هي، هل ترى؟» قال فافيل بسرعة. «هذا مستحيل. إنها تعرف ذلك مثلما أنا أفعل».

«إهدأ، هلاّ فعلت؟ امنح السيدة دنفرز الوقت كي تتكلم. كتبت تلك الرسالة خلال تلك الساعات التي قضتها في لندن. كان هنالك شيء تود أن تخبرك به. دع السيدة دنفرز تقرأ الرسالة».

قرأتها مرتين وهي تهز رأسها، ثم قالت: «لا توجد أية فائدة.

Add to Basket

لأ أفهم ماذا عنته. لو كان هنالك شيء مهم تخبره للسيد جاك لكانت أخبرتني به أولاً».

«هل يعلم أحد كيف أمضت ذلك النهار في لندن؟».

قال فافيل وهو يتنهد: «انظر هنا، لقد تركت هذه الرسالة في شقتي عند الثالثة من بعد الظهر وقد رآها الخادم. لا بد أنها اتجهت إلى هنا مباشرة بعد ذلك؛ وذهبت كالريح، أيضاً».

قالت السيدة دنفرز: «لقد ضربت مسز دي ونتر موعداً من أجل تصفيف شعرها. أذكر ذلك لأنني اتصلت بلندن من أجلها، من الثانية عشرة حتى الواحدة والنصف. ثم تناولت غداءها في ناديها إثر ذلك».

«لنقل إنها استغرقت نصف ساعة لتناول غدائها؛ ما الذي كانت تفعله من الساعة الثانية حتى الثالثة؟».

صرخ فافيل: «أوه، من يكترث بما كانت تفعله؟ لم تقتل نفسها ـ وهذا هو الأمر الوحيد المهم».

قالت مسز دنفرز ببطء: «إنني أحتفظ بدفتر مواعيدها في غرفتي. ربما دونت مواعيدها لذلك النهار. لقد كانت حذرة جداً في شأن ذلك، وقد اعتادت أن تدون كل شيء، ومن ثم تشطبه بعلامة تعامد عندما يُنجز».

Add to Basket

«حسناً يا دي ونتر؛ ماذا تقول؟ هل تسمح لنا بمشاهدة هذا الكتاب؟».

قال مكسيم: «بالطبع لا، لماذا بحق السماء ينبغي أن أفعل؟». مرة أخرى رأيت الكولونيل جوليان يرمقه بتلك النظرة الغريبة السريعة.

عادت السيدة دنفرز بكتيب أحمر في يدها وقالت: «كنت على حق. لقد دونت مواعيدها مثلما ذكرت».

أعطت الكتيب إلى الكولونيل جوليان وساد صمت طويل فيما كان ينظر إلى الصفحة. كان هنالك ما يشوب تلك اللحظة التي أخافتني أكثر من أي شيء حدث في تلك الأمسية. لم أستطع النظر إلى مكسيم.

قال: «آه» وأصبعه في منتصف الصفحة. ظننت أن شيئاً ما سيحدث، شيئاً رهيباً. «بل، ها هو». تصفيف الشعر عند الثانية عشرة، مثلما ذكرت مسز دنفرز. وعلامة تعامد بجانبه. إذن احتفظت بمواعيدها. «غداء في النادي»، وعلامة تعامد بجانبه. ومع ذلك، ماذا لدينا هنا؟ بايكر، الساعة الثانية. من هو بايكر؟» نظر إلى مكسيم، فهز مكسيم رأسه. ثم إلى السيدة دنفرز. «بايكر؟» رددت السيدة دنفرز. «ألم تعرف أحداً باسم بايكر. لم أسمعها تذكر الاسم».

Add to Basket

«حسناً، ها هو!» قال الكولونيل جوليان وهو يعطي الكتيب. «بايكر». وقد وضعت إشارة تعامد كبيرة بجانبه وكأنما تود أن تحطم القلم الرصاصي. يبدو وكأنها رأت بايكر هذا، مهما كان. أعتقد أنه لو عرفنا من هو، نستطيع الوصول إلى عمق المسألة كلها. لم يكن لها أي عدو، أي واحد هددها، ولا أحد كانت تخشاه؟».

«السيدة دي وينتر كانت خائفة؟ لم تكن تخشى شيئاً ولا أحداً. هنالك شيء واحد أقلقها، وهو فكرة التقدم في السن، المرض، الموت في السرير. قالت لي عشرات المرات عندما أموت يا داني، أريد الموت بسرعة ـ مثل ضوء. هذا هو الشيء الوحيد الذي أراحني. يقولون إن الغرق ليس بمؤلم، هل هذا صحيح؟». وبعد ذلك أطلقت صيحة فجأة، «يوجد شيء ما هنا ـ في الخلف تماماً، بين أرقام الهاتف. «بايكر: ٠٤٨٨». هذا كل شيء».

أجل...» قال الكولونيل جوليان: «لكن لماذا لم تضع رقم التبديل؟».

«جرّب كل رقم تبديل في لندن!» قال فافيل. «سيستغرق ذلك كل الليل فقط، وماكس يريد أن يلعب لكسب الوقت، أليس كذلك يا ماكس؟ وأنا كنت لأفعل ذلك لو كنت مكانك؟!».

Add to Basket

«هل يمكن أن تكون هذه الإشارة بجانب الرقم حرف م؟».

تناولت مسز دنفرز الكتيب مجدداً. «ربما كانت. إنها لا تشبه حرف م الذي تكتبه عادة، لكن ربما كتبته بسرعة. أجل. ربما كان الحرف م».

قال مكسيم: «حسن؟ يستحسن فعل شيء بشأنه. فرانك! أبداً واسأل رقم التبديل لـ ماي فير ٠٤٨٨».

وقفت هادئة تماماً. لم ينظر مكسيم إلي. انطلق فرانك إلى الغرفة الصغيرة، وبخلال لحظة سمعناه يقول: «هل هذا ماي فير ٠٤٨٨؟ هل تستطيع أن تخبرني إن كان أحد ما باسم بايكر يسكن هناك؟ أوه، فهمت. متأسف. أجل، لا بد أن لدي الرقم الخطأ. شكراً لك».

بعد ذلك رجع إلى الغرفة. «امرأة ما تدعى ليدي إيستليه تسكن في ماي فير ٠٤٨٨. لم يسمعوا أبداً باسم بايكر».

أطلق فافيل صرخات قوية من الضحك. «تابع! ما هو رقم التبديل التالي على اللائحة؟».

قالت السيدة دنفرز: «جرب متحف».

نظر فرانك إلى مكسيم الذي قال: «هيا».

ومرة ثانية ذهب فرانك إلى الغرفة الأخرى. ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه. «هالو- هل هذا متحف ٠٤٨٨؟ هل

Add to Basket

يمكنك أن تخبرني إن كان أحد باسم بايكر يسكن هنا؟ أوه ـ من يتكلم؟ أوه، نعم. نعم، فهمت. هل يمكن أن تعطيني العنوان؟ أجل؛ إن الأمر مهم نوعاً ما». توقف ثم قال لنا من فوق كتفه، «أعتقد اننا حصلنا عليه».

أوه، رجوت أن لا يكون ذلك حقيقة! لا يجب العثور على بايكر! كنت أعرف من هو بايكر. كنت أعرف طيلة الوقت. راقبت فرانك ينحني فجأة ليصل إلى قلم رصاص وورقة. «هالو؟ نعم، ما زلت هنا. هل يمكنك تهجئته؟ شكراً جزيلاً لك. عمت مساءً». عاد إلى الغرفة وقطعة الورق بيده. إن فرانك الذي أحب مكسيم، لم يكن يدري أن بتلك القطعة من الورق يستطيع تحطيم مكسيم وكأنما يمسك سكيناً حقيقياً بيده.

«إنه الخادم في مكان في بلومز بري. ما من أحد يعيش هناك، ويشغله طبيب في النهار. يبدو أن بايكر تقاعد، وغادر المكان منذ ستة أشهر. لكننا نستطيع أن نعثر عليه بالتأكيد. لقد أخبرني الرجل عن عنوانه وكتبته على قطعة الورق هذه».

عندها نظر مكسيم إلي. نظر إلي لأول مرة في تلك الأمسية. وفي عينيه قرأت رسالة أخيرة. وفي تلك اللحظة غاب عن ذاكرتي فافيل، السيدة دنفرز، الكولونيل جوليان، فرانك، مع أقصوصة

Add to Basket

الورق بيده. ثم التفت وقال لفرانك: «حسناً فعلت، ما هو العنوان؟».

«مكان ما بالقرب من بارنت، إلى الشمال من لندن. لكنه غير موجود على الهاتف. لا نستطيع أن نتصل به».

«هل يمكنك أن تلقي أي ضوء على ذلك الآن؟» سأل الكولونيل جوليان السيدة دنفرز.

هزت رأسها وقالت: «لم تكن السيدة دي ونتر بحاجة إلى طبيب. ومثل سائر الناس الأشداء كانت تكرههم. مرة واحدة استدعينا الدكتور فيليبس من كريث. لم أسمعها أبداً تتحدث عن الدكتور بايكر هذا».

«ماذا يهم من يكون بحق الشيطان؟ لو كان ذات أهمية لعرفت داني. لم تخفي ربيكا أي أسرار عنها».

«لقد أخبرني الخادم في متحف ٤٨٨٠ انه كان طبيباً مشهوراً جداً خاصة للنساء».

«أم م»، قال الكولونيل جوليان: «لا بد أنها كانت تعاني من مرض ما، لكن يبدو غريباً جداً أنها لم تقل شيئاً حتى لكِ يا سيدة دنفرز».

قال فافيل: «كانت نحيلة جداً، وقد أخبرتها بذلك، لكنها ضحكت فقط. قالت إن هذا يناسبها. أعتقد أنها حافظت عليه

Add to Basket

عن قصد مثل سائر النساء. من المحتمل أنها ذهبت إلى الفتى بايكر لاستشارته بشأن طعامها».

قالت مسز دنفرز: «لا أستطيع فهم ذلك. دكتور بايكر... لماذا لم تخبرني؟ لقد اعتادت أن تخبرني بكل شيء».

قال الكولونيل جوليان: «ربما لم تشأ أن تقلقك. لقد ضربت موعداً معه ورأته، وكانت ستخبرك كل شيء في تلك الليلة».

ثم قالت مسز دنفرز فجأة: «والرسالة إلى السيد جاك؟». «لدي ما أخبرك به. يجب أن أراك»، كانت تنوي أن تخبره أيضاً».

قال فافيل: «أعتقد أنكِ مصيبة قبل أي شيء. يبدو أن الرسالة والموعد مرتبطان معاً، لكن بشأن ماذا؟ هذا ما أود معرفته؟ ماذا أصابها؟».

هتفت الحقيقة في آذانهم لكنهم لم يفهموا، لم أجرؤ على النظر إليهم. لم أجرؤ حتى على الحراك.

قال فرانك: «ينبغي أن يكون اكتشاف ذلك سهلاً. أستطيع أن أكتب رسالة له وأسأله عما إذا كان يتذكر موعداً تم في السنة الماضية مع مسز دي ونتر.

قال الكولونيل جوليان: «لا أدري إن كان سيجيبك. أنت

Add to Basket

تعرف كيف هم أولئك الأطباء. الطريقة الوحيدة التي يمكن الحصول فيها على أي شيء منه سيكون بجعل دي ونتر يقابله بنفسه ويشرح الأمور».

قال مكسيم بهدوء: «أنا مستعد للقيام بما تقترحه».

قال فافيل: «أي شيء من أجل كسب الوقت، إيه؟ يمكن فعل الكثير في غضون أربع وعشرين ساعة، أليس كذلك؟ قطارات يمكن أن تُستقل، سفن يمكن أن تبحر، وطائرات يمكن أن تطير».

رأيت السيدة دنفرز تنظر بسرعة من فافيل إلى مكسيم، فأدركت عندها أنها لم تعرف بشأن اتهام فافيل. أخيراً بدأت تفهم. استطعت أن أتبين هذا من خلال النظرة التي ارتسمت على وجهها. ظننت أن الوقت متأخر جداً، و أنها لن تستطيع فعل أي شيء لنا. لا تستطيع أن تؤذينا بعد ذلك. كان مكسيم يتحدث إلى الكولونيل جوليان. قال له: «ماذا تقترح؟ هل أنطلق إلى هذا العنوان في الصباح؟».

قال فافيل وهو يطلق ضحكة صغيرة: «لن يذهب بمفرده. لدي الحق في قول ذلك، صحيح؟ أرسله مع المحقق ولش ولن أعارض».

لو أن السيدة دنفرز تبعد عينيها عن مكسيم فقط! رآها فرانك

Add to Basket

الآن. كان يراقبها وهو منذهل وقلق. رأيته ينظر مجدداً إلى قطعة الورق بيده، حيث كتب عنوان الدكتور بايكر. ثم نظر إلى مكسيم. أعتقد أنه بدأ يكوّن فكرة ما عن الحقيقة، لأنه شحب ووضع الورقة على الطاولة.

قال الكولونيل جوليان: «لا أظن أن هنالك أية ضرورة لإقحام المحقق ولش في هذه المسألة ـ بعد». كان صوته مختلفاً ـ أكثر قساوة. لم تعجبني الطريقة التي استخدم فيها كلمة «بعد». لماذا ينبغي أن يستخدمها، قبل أي شيء؟ لم يعجبني ذلك. «لو ذهبت مع السيد دي ونتر ولبثت معه طيلة الوقت، وأعدته، هل يرضيك هذا؟».

نظر فافيل إلى مكسيم، ثم إلى الكولونيل جوليان وقال ببطء: «أجل. أجل. أعتقد هذا. لكن من أجل الأمن، هل تسمح بأن آتي أيضاً؟».

«لا. لسوء الحظ، أعتقد أن لديك الحق في طلب ذلك».

قال فافيل: «أعتقد أن الدكتور بايكر سيثبت قضيتي قبل أي شيء». ثم نظر إلى كل منا وبدأ يضحك. أعتقد أنه هو أيضاً فهم أخيراً معنى تلك الزيارة إلى الطبيب.

Add to Basket

قال: «حسناً، متى ننطلق؟».

قال الكولونيل جوليان: «الساعة التاسعة؟».

قال مكسيم: «الساعة التاسعة».

قال فافيل: «وكيف نعرف ما إذا لاذ بالفرار أثناء الليل؟ ليس عليه سوى التسلل إلى الكاراج وركوب سيارته».

«هل كلمتي كافية بالنسبة لك؟» قال مكسيم وهو يلتفت إلى الكولونيل جوليان. ولأول مرة تردد الكولونيل جوليان. شحب وجه مكسيم وقال ببطء: «سيدة دنفرز، عندما نأوي أنا والسيدة دي ونتر إلى الفراش الليلة، هلاّ صعدتِ بنفسكِ وأقفلتِ الباب من الخارج؟ وتستدعينا بنفسك عند السابعة صباحاً؟».

قالت السيدة دنفرز: «أجل يا سيدي».

«حسن جداً، إذن»، قال الكولونيل جوليان باقتضاب. «لا أعتقد أن هناك أي شيء سوى ذلك نحتاج إلى مناقشته الليلة. سأكون هنا في التاسعة صباحاً. سيكون لديك مكان لي في سيارتك يا دي ونتر؟».

«أجل» قال مكسيم.

«وسيتبعنا فافيل في سيارته؟».

«في اثرك تماماً، يا صديقي العزيز، في اثرك تماماً».

Add to Basket

اقترب الكولونيل جوليان مني وتناول يدي، ثم قال: «ليلة سعيدة. تدركين كم أشاطرك الشعور في كل ذلك؟ ليست هناك أية حاجة لي لأخبرك. اجعلي زوجك يأوي إلى الفراش باكراً لو استطعتِ، سيكون يوماً حافلاً». أمسك يدي للحظة، ثم ابتعد. كان غريباً في الطريقة التي تجنب فيها عيني.

قال فافيل: «أفترض أنني لن أستدعى للعشاء. لا يهم، إنني أتلهف ليوم غد. وداعاً إذن، أيها العجوز. أحلاماً سعيدة. استغل ليلتك قدر المستطاع وراء ذلك الباب المقفل». التفت وضحك إلي، ثم خرج من الغرفة تتبعه السيدة دنفرز، فأصبحت أنا ومكسيم بمفردنا.

مددت ذراعي له، فأتى إلي مثل طفل طوقته بذراعي واحتضنته. لم نقل شيئاً لفترة طويلة. ثم قال أخيراً:

«نستطيع أن نجلس معاً أثناء القيادة في السيارة».

«أجل».

«لن يمانع جوليان».

«كلا».

قال: «سيكون لدينا ليلة غد، أيضاً. لن يتخذوا أي اجراء فوري. ربما ليس في خلال أربع وعشرين ساعة».

أذكر كل تفاصيل تلك الأمسية. كانت الستائر مسحوبة. بدا

Add to Basket

غريباً أن نكون جالسين في غرفة الطعام من دون أن نتطلع إلى الحدائق في الخارج. كان ذلك أشبه ببدايات الخريف.

رن جرس الهاتف فيما بعد، وسمعت بياترس من الطرف الآخر. قالت: «هل هذا أنت؟ لقد كنا نحاول الاتصال بكم، إذ شاهدنا صحف المساء. إن نتيجة التحقيق كانت صدمة رهيبة بالنسبة لكل من جايلز ولي. ما الذي يقوله مكسيم بشأن ذلك؟».

قلت: «أظن أنها كانت صدمة للجميع».

«لكن يا عزيزتي، لا أستطيع تصديق ذلك، لماذا بحق السماء تقتل ربيكا نفسها؟ الإنسان الأقل احتمالاً في العالم! لا بد أن هناك خطأ ما».

«لست أدري».

«وماذا يقول مكسيم؟ أين هو؟».

قلت: «كان هنا بعض الناس. الكولونيل جوليان وآخرون. مكسيم متعب جداً. نحن ذاهبان إلى لندن غداً».

«لماذا بحق السماء؟».

«شيء ما يتعلق بالتيجة. لا أستطيع الشرح جيداً».

«لا بد أن تجعليها تتغير. إن الكولونيل جوليان يستطيع

Add to Basket

بالتأكيد أن يفعل شيئاً؟ ما هي وظيفة قضاة الصلح؟ لا بد أن هوريدج العجوز معتوه. لماذا افترض أنها فعلت ذلك؟ لا بد أن يمسك أحد ما بـ تاب. كيف له أن يعرف ما إذا كانت الثقوب في المركب أُحدثت عن قصد أم لا؟ طبعاً يقول جايلز انها أُحدثت بسبب الصخور».

قلت: بدا أنهم يعتقدون غير ذلك».

«لو أنني فقط كنت هناك! لا يبدو أن أي أحد بذل أي جهد. هل مكسيم مضطرب جداً؟».

«إنه متعب. متعب أكثر من أي شخص آخر».

«اخبريه أنه يجب أن يحاول تغيير نتيجة التحقيق. إنه لأمر سيء جداً للعائلة. وأنا أخبر كل شخص هنا أن ذلك تدبير شرير تماماً. لم تكن ريبكا لتقتل نفسها. فهي ليست من هذا النوع».

قلت: «لا جدوى من ذلك، الوقت متأخر جداً. أرجوك يا بياترس، لا تحاولي القيام بأي شيء. إن ذلك فقط سيجعل الأمور أكثر سوءاً. أرجوك يا بياترس، اتركيه وشأنه».

شكراً لله أنها لم تكن معنا اليوم! كانت هنالك جلبة غاضبة على الهاتف. سمعت بياترس تقول: «هالو! هالو!» ثم ساد صمت. عدت إلى المكتبة، لكن في غضون دقائق قليلة بدأ الهاتف يرن من جديد، فتركته يرن. ذهبت وجلست عند قدمي

Add to Basket

مكسيم. استمر في الرنين، لكنني لم أتحرك. وضع مكسيم ذراعيه حولي وضمني إلى صدره.

Add to Basket

الفصل العاشر

الحقيقة الخادعة

عندما استيقظت في الصباح التالي، بعد الساعة السادسة تماماً، ونهضت وذهبت إلى النافذة، كان العشب ندياً والأشجار مخبأة بالغيم الأبيض، كان الهواء بارداً معبقاً برائحة الخريف الرطب. وفيما جثوت بجانب النافذة أتطلع إلى حدائق الزهور، بدت أحداث النهار السابق بعيدة وغير حقيقية، هنا في مندرلي كان نهار جديد يبدأ؛ إلا أن الحديقة لم تكن معنية بمشاكلنا. ركض عصفور أسود عبر حديقة الزهور في اندفاعات سريعة قصيرة. وطير بحري لبث معلقاً في الهواء، صامتاً ووحيداً، وبعد ذلك بسط جناحيه وطاف فوق الغابات باتجاه الوادي السعيد. لقد استمرت هذه الأشياء؛ لم تبدلها همومنا وقلقنا. ما من أحد سيؤذي مندرلي. ستلبث دائماً في جوفها؛ تحميها الغابات، آمنة وغامضة، فيما تحطم البحر وتدافع ثم عاد مجدداً فوق حجارة الخليج الصغير البيضاء في الأسفل.

Add to Basket

بدت حقيبة ملابسي غير مألوفة عندما سحبتها من الخزانة. بدا أنه مر زمن طويل منذ أن استخدمتها، ومع ذلك لم يكن ذلك إلا منذ أربعة أشهر! في أحد الجيوب كانت بطاقة لمسرح في مونتي كارلو. بدا وكأنها تنتمي إلى عصر آخر، وعالم آخر. بدأت غرفتي تتخذ شكل غرفة يرحل صاحبها - خالية، موحشة. عندما صرت في منتصف الممر، ساورني شعور غريب بأن أعود وأنظر مرة أخرى. وقفت لحظة أتطلع إلى الخزانة المفتوحة، السرير الخالي، وصينية الشاي فوق الطاولة. أتساءل لِمَ كانت لديهم القوة على التأثير بي، على إحزاني، وكأنما هم أطفال لا يريدون مني الرحيل.

وصل فرانك بعد الفطور وقال: «إن الكولونيل جوليان ينتظر في الأسفل عند البوابات. سأكون في المكتب طيلة النهار في حال اتصلت. بعدما ترى بايكر، يمكنك أن تجدني فوق في لندن».

«أجل»، قال مكسيم. «أجل، ربما».

«إنها التاسعة تماماً الآن. أنت في الوقت المحدد. سيكون الطقس مشمساً. ستكون هناك مسافة سفر جيدة».

قال مكسيم: «من الأفضل أن نذهب. سيبدأ جوليان العجوز بالقلق».

Add to Basket

صعدت إلى السيارة بجانب مكسيم وأغلق فرانك الباب قائلاً:

«ستتصل، أليس كذلك؟».

قال مكسيم: «أجل، حتماً».

استدرت ونظرت إلى المنزل. كان فريث واقفاً عند قمة الدرجات، وروبرت وراءه تماماً. فاضت عيناي بالدموع من دون سبب. التفتُّ بعيداً كيلا يرى ذلك أحد. بعد ذلك أدار مكسيم السيارة، وانعطفنا عند الزاوية فتوارى المنزل عنا.

توقفنا عند البوابات لمرافقة الكولونيل جوليان الذي بدا مرتاباً عندما رآني، فقال:

«سيكون نهاراً طويلاً. لا أظن أنه كان ينبغي عليكِ تجربته. كنت سأنتبه لزوجك، أتعلمين؟».

قلت: «لقد أردتُ المجيء».

لم يقل المزيد عن ذلك، بل صعد في الخلف. «ذلك المخلوق فافيل قال إنه سيلاقينا عند تقاطع الطرق. إن لم يكن هناك، لا تنتظر؛ سنعالج الأمر على نحو أفضل بكثير من دونه».

لكن عندما وصلنا إلى تقاطع الطرق، رأيت هيكل سيارته الأخضر، فغاص قلبي. ظننت أنه لن يكون في الوقت المحدد، كان يجلس يدخن عند العجلة وقد خلع قبعته؛ أشار إلينا كي

Add to Basket

نتابع عندما رآنا. استويت في مقعدي استعداداً للرحلة المنتظرة، إحدى يديّ على ركبة مكسيم.

بقيت السيارة الخضراء وراءنا تماماً. وصلنا إلى مشارف لندن عند حوالى الساعة الثالثة. وعندها بدأت أشعر بالتعب؛ فالضجة والحرارة سببتا لي الصداع. كان الجو حاراً، وكان للشوارع هيئة آب المغبرة، والأوراق معلقة بسكون على الأشجار الباهتة. لم ينهمر المطر هنا. وكان هناك العديد من أناس، وكثير من الضجيج. بدا أن المسافة عبر لندن من دون نهاية. وما إن قطعناها وأصبحنا خارجاً وراء هامبستيد، كان في رأسي صوت أشبه بقرع الطبول، وكانت عيناي تحترقان. تساءلت كم كان مكسيم متعباً. كان شاحباً وقد ارتسمت خطوط تحت عينيه.

عندما وصلنا إلى بارنت بذاتها، جعله الكولونيل جوليان يتوقف كل بضع دقائق. «هل تستطيع أن تخبرنا أين يوجد بيت يدعى «روزلندز»؟ يمتلكه الدكتور بايكر، الذي تقاعد وجاء ليعيش هنا مؤخراً». في اثرنا جاء فافيل، وقد تغطت سيارته الخضراء المنخفضة بالغبار. وكان ساعي بريد من دلنا إلى البيت في النهاية. إنه بيت مربع، بلا اسم على البوابة، وقد مررنا به مرتين من قبل. أوقف مكسيم السيارة عند جانب الطريق. جلسنا صامتين دقائق قليلة.

Add to Basket

«حسناً ها نحن هنا»، قال الكولونيل جوليان، «وهي الخامسة واثنتا عشرة دقيقة تماماً. سنقابلهم في منتصف تناولهم الشاي».

خرجنا من السيارة، وجاء فافيل. مشينا إلى الباب الأمامي، وكنا مجموعة صغيرة غريبة. قرع الكولونيل جوليان الجرس، ففتحت خادمة شابة جداً الباب لنا. بدت مندهشة لوجود الكثير منا.

قال الكولونيل جوليان: «الدكتور بايكر؟».
«أجل يا سيدي؟ هلاّ دخلتم؟».

فتحت باباً إلى اليسار، إلى غرفة بدت أنها لم تستخدم كثيراً في الصيف. تفحص فافيل صورة على الحائط. وقف الكولونيل جوليان بجانب الموقد الفارغ. ونظرت أنا ومكسيم خارج النافذة.

ثم فتح الباب ودخل رجل الغرفة. كان ذا ارتفاع متوسط، ووجه طويل نوعاً ما بفك قوي وكان شعره يستحيل رمادياً.

قال وقد بدا مندهشاً قليلاً مثلما فعلت الخادمة عندما شاهدت عددنا الكبير: «أعذروني لأنني تركتكم تنتظرون. كان علي الإسراع إلى الطابق الأعلى والاغتسال. إذ كنت في الحديقة عندما قُرع الجرس. هلاّ جلستم؟».

جلست على أقرب كرسي وانتظرت. قال الكولونيل جوليان:

Add to Basket

«آسف جداً لإزعاجك عل هذا النحو. اسمي جوليان. وهذا هو السيد دي ونتر ـ السيدة دي ونتر ـ السيد فافيل. ربما شاهدت اسم السيد دي ونتر في الصحف مؤخراً».

«أوه؟» قال الدكتور بايكر. «أجل، أجل ـ أعتقد أنني فعلت. بعض التحقيق أو سواه، أليس كذلك؟ زوجتي كانت تقرأ كل شيء عن الأمر».

قال فافيل: «قيل أثناء التحقيق إن السيدة دي ونتر السابقة قتلت نفسها، الأمر الذي أقول إنه مستحيل تماماً. السيدة دي ونتر كانت ابنة عمي، وقد عرفتها جيداً. لم تكن لتقترف مثل هذا الشيء. لم يكن لديها سبب لذلك. ما نود معرفته هو لماذا بحق الشيطان قدمت لرؤيتك يوم وفاتها بالذات؟».

قال مكسيم بهدوء: «من الأفضل أن تترك هذا لجوليان ولي. فالدكتور بايكر ليست له أدنى فكرة عما تقصده». ثم التفت إلى الطبيب. «ولقد سافرنا لنراك اليوم لأننا عثرنا عل اسمك ورقم هاتف مسكنك القديم في دفتر مواعيد زوجتي السابقة. يبدو أنها رأتك عند الساعة الثانية في اليوم الأخير الذي أمضته في لندن. هل يمكنك التحقق من ذلك لنا؟».

Add to Basket

عندما انتهى مكسيم، هز الدكتور بايكر رأسه وقال: «آسف جداً، لكن أعتقد أنكم ارتكبتم خطأ. كان ينبغي أن أتذكر الاسم دي ونتر. لم أعالج أية مسز دي ونتر في حياتي أبداً».

أخرج الكولونيل جوليان الكتيب وقال: «ها هو مدوّن هنا. بايكر: الساعة الثانية. وعلامة تعامد كبيرة إلى جانبه لتظهر أنه تم الحفاظ على الموعد. وهنا ما يشبه رقمك «متحف ٤٨٨٠».

تفحصه الدكتور بايكر ثم قال: «هذا غريب جداً ـ في غاية الغرابة حقاً. بل، الرقم صحيح كما تقول»:

«هل يمكن أن تكون قد جاءت لتراك، وأعطت اسماً آخر؟».

«أجل، هذا ممكن. إن الأمر غير عادي طبعاً، وأنا لم أشجع أبداً هذا النوع من التصرف، فهو لا يفيدنا بشيء في اختصاصنا».

قال الكولونيل جوليان: «هل لديك أي سجل عن الزيارة بين أوراقك؟ أعرف أن هذا لا يتبع عادة، لكننا نشعر فعلاً أن موعدها معك لا بد أن يكون له علاقة بـ ـ».

«ـ مقتلها»، قال فافيل مقاطعاً إياه.

رفع الدكتور بايكر حاجبيه وقال بهدوء: «لم تكن لدي أية

Add to Basket

فكرة من أن هنالك أي شك في ذلك. بالطبع سأبذل كل ما بوسعي لمساعدتك. هلاّ عذرتموني لدقائق قليلة ريثما أذهب وأبحث بين أوراقي. لا بد أن يكون هنالك سجل عن كل موعد. ووصف عن الحالة». ثم خرج.

قال الكولونيل جوليان: «يبدو أنه إنسان رفيع الخلق».

قال فافيل: «لماذا لم يقدم لنا شراباً؟ أعتقد أنه يقفل عليه. لا يعجبني كثيراً. لا أعتقد أنه سيساعدنا الآن».

عاد الدكتور بايكر إلى الغرفة حاملاً كتباً وأوراقاً بيديه. حملها إلى الطاولة وقال: «أحضرت مجموعة السنة الماضية. لم أراجعها منذ أن انتقلنا. إذ لم أتقاعد إلا منذ ستة أشهر فقط، أتعلمون». فتح كتاباً وبدأ يقلب الصفحات. راقبته بضعف. سوف يجده، بالطبع. إنها مسألة دقائق الآن، ثوانٍ. ثم قال: «السابع، الثامن، العاشر، هل قلت الثاني عشر؟ الساعة الثانية؟ آه!».

لم يتحرك أحد منا. كلنا راقبنا وجهه.

«رأيت السيدة دنفرز في الثاني عشر عند الساعة الثانية».

Add to Basket

«داني؟ يا للعجب...» بدأ فافيل يقول، لكن مكسيم قاطعه قائلاً: «لقد أعطت اسماً خطأ، وهذا كان واضحاً منذ البداية. هل تذكر الزيارة الآن يا دكتور بايكر؟».

لكن الدكتور بايكر كان قد بدأ البحث في أوراقه. رأيته يخرج رزمة عليها علامة «D». لقد عثر على الملاحظات في الحال وقرأها بسرعة ثم قال: «بلى، السيدة دنفرز، أذكر ذلك الآن».

وضع الأوراق ثم قال لمكسيم: «طبعاً أنت تدرك أن هذا هو غير اختصاصي على الإطلاق؟ لكن زوجتك ماتت، وأنا أفهم أن الوضع غير عادي. تريد أن تعرف إن كنت أستطيع أن أقترح أي سبب يدفع زوجتك إلى تدمير حياتها؟ أستطيع أن أفعل. فالمرأة التي تسمي نفسها السيدة دنفرز كانت مريضة على نحو خطير».

توقف ونظر إلى كل منا بدوره.

«أذكرها تماماً. أتتني قبل أسبوع من الموعد المذكور، وأخذت بعض صور الأشعة لها. والزيارة الثانية كانت لسماع ما أظهرته الصور. أذكرها وهي تمد يدها لها قائلة: «أريد أن أعرف الحقيقة. لا أريد كلمات رقيقة. تستطيع أن تخبرني مباشرة».

Add to Basket

توقف ونظر بسرعة إلى الملاحظات. انتظرت. لماذا لا ينهي الأمر ويتركنا نذهب؟ لماذا ينبغي أن نجلس هنالك ننتظر وعيوننا مركزة على وجهه؟

«حسناً، طلبت الحقيقة، فتركتها تحصل عليها. بعض الناس يتحملون ذلك؛ وإخفاء الحقائق لا يفيدهم. تحملت ذلك بشكل جيد جداً. قالت إنها كانت تشك بذلك منذ بعض الوقت. ثم دفعت لي وخرجت. ولم أرها ثانية أبداً».

أغلق الكتاب وأعاد الأوراق.

«الألم كان خفيفاً عند ذلك، لكن المشكلة متأصلة الجذور. ففي غضون ثلاثة أو أربعة أشهر لم يكن بالمستطاع فعل شيء سوى محاولة قتل الألم والانتظار. ليس هنالك ما بوسع المرء فعله سوى ذلك في حالة كهذه».

لم ينطق أحد بكلمة. أخذت الساعة الصغيرة تتك. وحلقت طائرة فوق رؤوسنا.

«ظاهرياً طبعاً، بدت امرأة حافلة بالصحة. كانت نحيلة نوعاً ما، هذا ما أذكره، وشاحبة قليلاً؛ لكن هذا هو الطراز الآن. إن صور الأشعة أظهرت تطوراً خاطئاً في بعض الأعضاء؛ مما يعني أنها لم تكن لتنجب طفلاً، لكن هذا لا علاقة له بالأمر. لم تكن له علاقة بالمرض».

Add to Basket

أذكر سماع الكولونيل جوليان يتكلم، يقول شيئاً عن الدكتور بايكر على أنه لطيف جداً ليتعب نفسه كثيراً. قال: «لقد أخبرتنا بكل ما نود معرفته؛ ولو كان بالإمكان أن نحصل على نسخة من ملاحظاتك، سيكون ذلك مفيداً جداً».

«طبعاً، طبعاً».

«ربما لن نحتاج إليها أبداً. لكننا أنا أو دي ونتر سنكتب، ها هي بطاقتي».

«يسعدني جداً أنني كنت ذات فائدة. لم يخطر ببالي أبداً أن السيدة دي ونتر والسيدة دنفرز يمكن أن يكونا الشخص ذاته».

«لا، طبيعي».

«أتصور أنكم عائدون إلى لندن؟ أفضل طريق لكم هو الانعطاف يساراً عند الزاوية، ثم يميناً عند المقبرة. بعد ذلك تستقيم الطريق».

«شكراً لك. شكراً جزيلاً لك».

خرجنا إلى الممر ومشينا إلى السيارة. لم يتكلم أحد. بدا فافيل شاحباً ومصدوماً. قال: «لم تكن لدي أدنى فكرة. لقد أبقته سراً عن الجميع، حتى داني. يا له من أمر رهيب، ايه؟ ليس بنوع الأمر الذي يمكن للمرء ربطه بربيكا. هل تشعرون أيها الرفاق بالرغبة في تناول شراب؟ إنني خارج الموضوع الآن، ولا أهتم

Add to Basket

بالاعتراف بذلك، يا إلهي!» ثم اتكأ على السيارة وغطى عينيه بيده.

قال الكولونيل جوليان: «تمالك نفسك يا رجل، بحق الله».

«أوه، أنت على ما يرام! أنت بخير!» قال فافيل وهو يقف مستقيماً وينظر إلى الكولونيل جوليان ومكسيم. «سيقدم بايكر ما تريده بالأسود والأبيض، بلا مقابل، عندما ترسل الأمر».

قال الكولونيل جوليان: «هلا دخلنا السيارة وذهبنا؟ نستطيع أن نجعل خططنا تسير».

دخلنا، لكن فافيل لبث منحنياً على السيارة.

قال الكولونيل جوليان: «علي أن أنصحك بأن تذهب مباشرة إلى شقتك وتأوي إلى السرير. وأن تقود ببطء. ويستحسن أيضاً أن أنذرك بصفتي قاضي الصلح أن لدي بعض القوى التي ستكون فعالة حتى لو شوهدت في كريث أو في المنطقة. نحن نعلم كيف نتعامل مع أمثالك من الناس، مع أن ذلك يبدو غريباً».

كان فافيل يراقب مكسيم. فقد شحوبه الآن، وأخذت الابتسامة الكريهة القديمة تتشكل على شفتيه، ثم قال ببطء: «أجل، إنها ضربة حظ لك يا ماكس، أليس كذلك؟ تعتقد

Add to Basket

أنك فزت، ألا تعتقد ذلك؟ لكن القانون يستطيع النيل منك، رغم ذلك، وكذلك أنا أيضاً، بطريقة مختلفة...».

أدار مكسيم المحرك وقال: «هل لديك ما تقوله بعد؟ لأنه لو لديك، من الأفضل قوله الآن».

«كلا»، قال فافيل: «كلا، لن أؤخرك. تستطيع الذهاب. تراجع والابتسامة ما زالت مرتسمة على شفتيه. انزلقت السيارة إلى الأمام. وعندما انعطفنا عند الزاوية، نظرت إلى الخلف، فرأيته واقفاً هناك يراقبنا، وفيما لوّح بيده، كان يضحك.

تابعنا القيادة بصمت لفترة، ثم تحدث الكولونيل جوليان. «لا يسعه القيام بأي شيء. إن تلك الابتسامة وذلك التلويح كانا جزءاً من ادعائه. إنهم كلهم متشابهون، هؤلاء الأشخاص. إذ ليس لديه أي خيط للإتيان به حول القضية. إن بايكر سيحطمه. لطالما شعرت أن الحل مرتبط ببايكر. الطريقة التي لم نخبر فيها حتى السيدة دنفرز... لا بد أنها كانت تعرف شيئاً. هذا رهيب! كاف لدفع امرأة شابة وجميلة إلى فقدان عقلها. أعتقد أنه لم تكن لديك أية فكرة عن هذا؟».

«كلا»، قال مكسيم: «كلا».

«بالطبع بعض الأشخاص يعيشون دائماً في الخوف منه. خاصة

Add to Basket

النساء. لا بد أن الحالة كانت كذلك مع زوجتك. كانت لديها الشجاعة لكل شيء عدا ذلك. لم تستطع مواجهة الألم. حسناً، لقد ارتاحت من ذلك، على أي حال».

«أجل»، قال مكسيم.

«لا أعتقد أنه سيلحق أي ضرر لو نشرت الخبر بهدوء في كريث من أن طبيباً لندنياً اقترح التفسير. في حال تكلم الناس. لا يمكنك التنبؤ، أنت تعلم. فالناس غريبو الأطوار. لو علموا بشأن السيدة دي ونتر، فإن ذلك سيجعل الأمر أسهل عليك بكثير. لا أفترض أن الصحافيين سيزعجونك بعد الآن. وهذا شيء جيد. سوف تجد أنهم سينهون المسألة كلها في يوم أو يومين».

تابعنا القيادة في اتجاه الجنوب ودخلنا لندن مرة أخرى. «السادسة والنصف. ما الذي ستفعله؟ لدي أخت تعيش في سانت جونز وود، وأنا أفكر أنني سأطلب منها تقديم عشاء لي، ومن ثم أستقل آخر قطار. وأنا متأكد من أنها ستسر برؤيتكما أيضاً».

تردد مكسيم ونظر إلي ثم قال: «إن هذا لطيف جداً منك، لكنني لا أعتقد هـذا. ينبغي أن أتصل بفرانك، كما علي القيام بأمور أخرى. أعتقد أننا سنتناول وجبة هادئة في مكان ما، ثم ننطلق مجدداً بعد ذلك. سنمضي الليل في فندق».

قال الكولونيل جوليان: «طبعاً. أفهم تماماً».

Add to Basket

عندما وصلنا إلى بيت أخته، قال مكسيم: «يستحيل شكرك على كل ما قمت به اليوم. أنت تعرف كيف أشعر».

«يا صديقي العزيز، لقد كنت مسروراً جداً يجب أن تضع الأمر كله وراءك الآن. أنا متأكد تماماً من أنك لن تعاني من مزيد من المتاعب من فافيل. وإن فعلت، سوف أعرف كيف أتعامل معه». ترجل من السيارة، حاملاً معطفه وخريطته. «ينبغي أن أخرج لفترة، خذ عطلة قصيرة. سافر إلى الخارج مثلاً». تردد ثم نظف حنجرته وقال: «من الممكن فقط أن تنشأ مصاعب طفيفة، من شخص أو شخصين في المنطقة. ما من أحد يعرف ما الذي يقوله تاب، وإلى ما هنالك. أنت تعرف المثل القديم ـ «بعيد عن العين بعيد عن القلب». فإن لم يكن الناس هنالك كي يتحدث الآخرون عنهم، فإن الكلام يموت. إنها طريقة العالم».

وقف لحظة يعد أغراضه. «أعتقد أنني أخذت كل شيء؛ المعطف، القبعة، العصا، الخريطة، كل شيء كامل. حسناً، وداعاً كلاكما. لا ترهقا نفسيكما كثيراً. لقد كان نهاراً حافلاً».

التفت إلى البوابة وصعد الدرجات.

انطلقنا في الطريق وانعطفنا عند الزاوية. أسندت ظهري في مقعدي وأغمضت عيني. وبما أننا أصبحنا بمفردنا ثانية وتبدد

Add to Basket

التوتر، كان شعوراً غريباً بالارتياح. عندما توقف مكسيم، فتحت عيني واستويت. كنا قبالة مطعم صغير في شارع ضيق في سوهو.

«أنت متعبة. جائعة ومتعبة ولا تصلحين لشيء. سوف تتحسنين عندما تتناولين شيئاً. وكذلك أنا. سندخل هنا ونطلب العشاء فوراً. كما أنني أستطيع أن أتصل بفرانك أيضاً».

ترجلنا من السيارة، لم يكن هناك أحد في المطعم. كان الظلام سائداً والطقس بارداً. ذهبنا إلى طاولة في الزاوية. قال مكسيم: «إن لدى فافيل الحق في الرغبة بشراب. فأنا أيضاً أريد شراباً أيضاً، وكذلك أنت».

كان الشراب خفيفاً دافئاً ومريحاً بشكل غريب.

«عندما نتناول العشاء، سنقود ببطء جداً وبهدوء. سيكون الطقس منعشاً في المساء. سنجد مكاناً ما على الطريق لقضاء الليل، ومن ثم نستطيع المتابعة إلى مندرلي في الصباح».

قلت: «أجل».

بدت عينا مكسيم ضخمة، وكانتا محاطتين بالظلال. بدتا داكنتين جداً في وجهه الأبيض.

«كم تعتقدين أن جوليان حزر من الحقيقة؟» راقبته من فوق

Add to Basket

كأسي، لكنني لم أقل شيئاً. «إنه يعرف»، قال مكسيم ببطء، «طبعاً كان يعرف».

«لو كان يعرف، لن يقول شيئاً».

«كلا»، قال مكسيم.

طلب شراباً آخر. جلسنا بصمت وأمن في زاويتنا المعتمة.

«أعتقد أن ربيكا كذبت علي عن قصد. أرادتني أن أقتلها. لقد رأت الموضوع كاملاً، لهذا ضحكت. لهذا وقفت هنالك تضحك عندما ماتت».

تابعت شرابي: انتهى كل شيء. تمت تسوية كل شيء، لم يعد يهم بعد الآن. ليست هنالك أية حاجة لمكسيم أن يبدو شاحباً ومضطرباً.

«لقد كانت نكتتها الأخيرة ـ أفضلها. وأنا لست متأكداً من أنها لم تفز، حتى الآن».

«ماذا تقصد؟ كيف يمكن أن تكون قد فازت؟».

قال: «لست أدري، لست أدري». أنهى شرابه الثاني ونهض قائلاً: «سأتصل بفرانك».

جلست هناك في زاويتي، وعند ذلك جلب لي النادل سمكتي. كانت ساخنة وجيدة جداً. تناولت شراباً آخر أيضاً. ابتسمت

Add to Basket

للنادل، وطلبت منه إحضار المزيد من الخبز بالفرنسية، من دون أي سبب. كان الجو هادئاً ودياً في المطعم. لقد كنا أنا ومكسيم معاً؛ وقد انتهى كل شيء.

سرعان ما عاد مكسيم ثانية وقلت: «حسناً، كيف كان فرانك؟».

«إن فرانك على ما يرام. مع أن شيئاً غريباً نوعاً ما حدث». قال مكسيم ببطء. «يظن أن السيدة دنفرز قد رحلت. في الظاهر كان تحزم أمتعتها طيلة النهار، وقدم رجل من المحطة لنقل أشيائها. لقد أخبر فريث فرانك عن ذلك، فرانك قال إن السيدة دنفرز كانت ستأتي لمقابلته في المكتب. وفيما بعد أخبر فريث فرانك أن السيدة دنفرز تلقت مكالمة هاتفية بعيدة في حوالى السادسة وعشر دقائق. وقد وجدوا غرفتها فارغة فيما بعد. لا بد أنها خرجت مباشرة من المنزل وعبر الغابات. لم تذهب أبداً عبر البوابات.

قلت: «أليس هذا شيئاً جيداً؟ لقد وفر علينا الكثير من المتاعب. كان علينا طردها، على أي حال. أعتقد أنها أدركت ذلك أيضاً. لقد احتقن وجهها بنظرة في تلك الليلة... بقيت أفكر فيها، عندما صعدنا السيارة».

قال مكسيم: «لا يعجبني ذلك. لا يعجبني ذلك».

«ليس بوسعها القيام بأي شيء. من اتصل هو فافيل، طبعاً.

Add to Basket

لا بد أنه أخبرها عن بايكر، وكان سيخبرها عما قاله الكولونيل جوليان بشأن تهديدنا. لن يجرؤا على فعل ذلك».

«لست أفكر بهذا».

«وماذا يستطيعان أن يفعلا غير ذلك؟ علينا أن نفعل مثلما قال الكولونيل جوليان ـ ينبغي أن ننسى الأمر. لقد انتهى كل شيء يا عزيزي؛ انتهى. ستبرد سمكتك. تناولها ـ إنها ستفيدك. إنك بحاجة لشيء بداخلك. إنك متعب». كنت أستخدم الكلمات التي استخدمها معي. شعرت أنني أفضل وأقوى. والآن أصبحت أنا من يعتني به. ستكون الأمور مختلفة في المستقبل. برحيل السيدة دنفرز، سوف أتعلم كيف أدير المنزل. سيأتي الناس للإقامة، ولن أبالي. وسيكون هنالك اهتمام بترتيب غرفهم، وتنسيق الزهور والكتب، وطلب الطعام. سنرزق بأطفال. سنرزق بأطفال، طبعاً.

قال مكسيم فجأة: «هل انتهيتِ لست أدري إن كنت أرغب بالمزيد. قهوة فقط. سوداء، قوية جداً، من فضلك ـ والفاتورة»، أضاف قائلاً للنادل.

تساءلت لماذا ينبغي أن نذهب بهذه السرعة. كان الوضع مريحاً في الفندق، وليس هنالك ما يستدعي رحيلنا. أحببت الجلوس هنالك، ورأسي متكىء على الكرسي العميق، أخطط

Add to Basket

للمستقبل بطريقة كسولة فرحة. كنت لأبقى جالسة هنالك لفترة طويلة.

قال مكسيم: «اسمعي، هل تعتقدين أن باستطاعتك النوم في السيارة لو غطيتك بخرقة ووضعتك في الخلف؟ توجد وسادة هناك، ومعطفي أيضاً. لدي شعور من أن علي النزول الليلة. سنكون هنالك عند الثانية والنصف».

قلت: «ستكون مرهقاً للغاية».

«كلا»، هز رأسه قائلاً. «سأكون بخير. أريد الوصول إلى البيت. هنالك خطب ما. أعرف هذا». كان وجهه قلقاً، غريباً، عندما بدأ يرتب الأشياء في مؤخرة السيارة.

قلت: «كيف يمكن أن يحدث خطأ؟ غريب جداً أن تقلق الآن، في حين انتهى كل شيء. لا أستطيع أن أفهمك».

لم يجب. غطاني بالخرقة. كان ذلك مريحاً. أفضل بكثير مما تخيلت. وضعت الوسادة تحت رأسي.

«هل أنتِ بخير؟ هل أنت متأكدة من أنكِ لا تبالين؟».

«كلا»، قلت مبتسمة. «أنا بخير. من الأفضل أكثر أن تفعل هذا ونعود إلى البيت. سنكون في مندرلي قبل شروق الشمس بكثير».

Add to Basket

دخلنا وانطلقنا، أغمضت عيني وتحركت السيارة بنعومة. مئات الصور لاحت في مخيلتي، ممزوجة بشكل غير منطقي. قبعة السيدة فان هوبر، النافذة الواسعة في الجناح الغربي في مندرلي، بن مبتسماً على نحو أخرق، ممسكاً بالأصداف بيده، ساعي البريد الذي أرشدنا إلى المنزل اليوم، جاسبر يتراكض على العشب.. استغرقت في نوم غريب متقطع، أستيقظ بين الحين والآخر إلى حقيقة سريري في السيارة، وظهر مكسيم أمامي. كان هناك أضواء للسيارات العابرة على الطريق؛ وكان هناك قرى وأضواء من وراء الستائر المسحوبة. أخيراً استويت في مقعدي، وأزحت الشعر بعيداً عن وجهي.

قلت: «لا أستطيع النوم، لا جدوى من ذلك».

قال مكسيم: «بل كنتِ نائمة. لقد نمتِ لساعات. إنها الثانية والربع. سرعان ما نكون في كريث».

كان الطقس بارداً وكنت أرتعش في ظلمة السيارة. قلت:

«سآتي إلى جانبك. سنكون في مندرلي عند الثالثة».

تسلقت من فوق المقعد وجلست إلى جانبه في المقعد الأمامي، وضعت يدي على ركبته.

Add to Basket

قال: «تشعرين بالبرد».
«أجل».

انتصبت التلال أمامنا، تلاشت، وانتصبت ثانية، كان الظلام دامساً، ورحلت النجوم.

سألت: «كم هي الساعة قلت؟».
«الثانية والعشرون دقيقة».

«إنه غريب - يبدو وكأن النهار ينبثق هناك، من وراء تلك التلال. ومع ذلك لا يمكن؛ فالوقت مبكر جداً».

«إنه الاتجاه الخاطىء. أنت تنظرين إلى الغرب».

قلت: «أعرف. لكن هذا غريب، أليس كذلك؟».

لم يجب، ولبثت أراقب السماء. بدا وكأنها تصبح أكثر توهجاً كلما نظرت، مثل الضوء الأحمر الأول لشروق الشمس. وما لبث أن انتشر شيئاً فشيئاً عبر السماء.

قلت: «أنت ترى الأضواء الشمالية في الشتاء، أليس كذلك؟ ليس في الصيف؟».

قال: «إنها ليست بالأضواء الشمالية. إنها مندرلي».

نظرت إليه ورأيت وجهه. رأيت عينيه.

قلت: «مكسيم! ما هذا؟».

قاد السيارة بسرعة أكبر ووصلنا إلى قمة التلة: هناك إلى شمالنا كان خيط النهر الفضي، يتسع باتجاه مصبه في كريث على بعد ستة أميال. ترامت أمامنا الطريق إلى مندرلي. لم يكن هنالك أي قمر، وكانت السماء فوق رأسينا سوداء كالبحر. لكن السماء في الأفق لم تكن سوداء على الاطلاق. كانت حمراء كالدم. والرماد اندفع ناحيتنا مع الريح المالحة من البحر.

Add to Basket

Daphne du Maurier

Rebecca

English - Arabic

DAR AL - BIHAR